حقيقة الجهاد في الاسلام

د. محمد نعيم ياسين

حقيقة الجهاد في الإسلام

الطبعة الأولــى
١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م

دار الأرقـــم
للنـــشر والتوزيـع

النقرة ــ شارع العثمان
ص. ب. ٤٣٢٣١ . حولـــي

بسم الله الرحمن الرحيم

حقيقة الجهاد في الإسلام

الجهاد عنصر أصيل في الإسلام، بعقيدته ونظامه، لا مجرد إجراء طارئ يقصد به دفع عدوان واقع، وليس أدل على هذه الحقيقة من ذلك الحيز الكبير والذكر الكثير الذي حظي به هذا العنصر في كتاب الله الكريم، وسنة رسوله محمد ﷺ، والذي يدل على أن الجهاد لا تقل أهميته في دين الإسلام عن الأركان الخمسة التي يقوم عليها بناؤه. بل عده بعض علماء الإسلام في المرتبة الثانية بعد الإيمان بالله عز وجل وبرسوله عليه الصلاة والسلام[1]. ولقد كان الجهاد من الأمور التي يُبايع الرسول عليها من يريد الدخول في الإسلام، ويَقرنُه بالشهادتين وبقية أركان الاسلام[2].

---

(١) أبو بكر الجصاص ــ أحكام القرآن ج ٣ ص ١٤٢ ــ المطبعة البهية المصرية ١٣٤٧ هـ .

(٢) نفسه.

هذا وإن إدراك مغزى هذه المكانة التي جُعلت للجهاد في دين الإسلام يتوقف على معرفة حقيقته المقصودة بالذكر في نصوص الشرع، وهو ما ندعوا الله تعالى أن يوفقنا إلى توضيحه في هذا البحث، توضيحا لا يقتصر على مجرد التعريف بالجهاد في اصطلاح الشريعة، وإنما يشتمل على إعطاء مفهوم كامل ومتكامل لهذه الفريضة الإسلامية الهامة، وذلك من خلال بيان موقعها في الدعوة الإسلامية، وغايتها، وخصائصها التي تميزها عن جميع صور الكدح البشري التي قد يُظَن أنها تُشبهها.

ولتحصيل ذلك المقصود نجعل البحث في خمسة مطالب هي:

المطلب الأول: في حقيقة الدعوة الإسلامية، وأهدافها، لأن الجهاد، كما سيتضح فيما بعد، هو المنهاج الحركي لتحقيق تلك الأهداف في الواقع العملي.

المطلب الثاني: في مفهوم الجهاد في لغة العرب أولا، وفي اصطلاح القرآن الكريم والسنة المشرفة ثانيا.

المطلب الثالث: في مركز الجهاد من الدعوة الإسلامية وغايته.

المطلب الرابع: في أشكال الجهاد ومراتبه، لأن معرفة أنواع الشيء تُلقِي ضوءاً على حقيقته، ونكتفي في هذا المطلب بذكر ما يحقق ذلك الهدف من غير توسع.

المطلب الخامس: في خصائص الجهاد.

المطلب الأول
(حقيقة الدعوة الإسلامية وأهدافها)

إن الله عز وجل خلق العباد ، ولم يهملهم ، ولم يتركهم سدى ، وإنما تولاهم ــ كجميع المخلوقات ــ برعايته وعنايته سبحانه . فأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب ، ليبين لهم المسار الصحيح ، في هذه الحياة الدنيا ، ويحدد لهم معالم الهدى في كل شعبة من شعاب هذه الحياة . وقد استقبلت أجيال البشرية هدى الله على مر العصور ، فمنهم من اهتدى ، ومنهم من رفض الهدى .

هذا وإن جوهر ذلك الهدى الذي تضمنته تلك الرسالات الربانية، ونادى به رسل الله جميعا ، واحد ، لم يختلف ، وإن اختلفت تلك الرسالات فيما جاءت به من الفروع والتفصيلات ، وهو دعوة البشر في كل زمان إلى عبادة الله، والتوجه إليه وحده ، والتلقي منه وحده ، في العقيدة ، والنية ، والفكرة ، والقول ، والعمل[3] . وفي المناهج والأحكام ، والقيم والأخلاق .

---

(٣) ابن تيمية ــ العبودية ص ٦،٧ ــ مطبعة المدني بالقاهرة ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م، سيد قطب ــ معالم في الطريق ص ٤٦ طبع ١٣٨٨ هـ .

وقد أفاض القرآن الكريم في بيان هذه الحقيقة كثيرا، ليعلم الناس في كل زمان ومكان، أنه لا سبيل إلى صلاح أمرهم في الحياة الدنيا، ونجاتهم من العذاب في الحياة الأخرى إلا هذه السبيل: وهي الدخول في العبودية الكاملة لخالق السموات والأرض، والتخلص من أية عبودية لغيره سبحانه.

فقال عز وجل مبينا وِحدة الغاية التي أُرسل من أجلها الرسل، وأُنزلت الكتب: « **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إليه أَنَّهُ لا إلٰهَ إلا أنَا فاعبُدُون** »[4].

وقال أيضا: « **وَلَقَد بَعَثْنَا في كُلِّ أُمَةٍ رَسُولا أنْ اعبُدوا الله واجْتَنِبُوا الطَّاغوت** »[5].

وفي قصص الأنبياء أخبرنا سبحانه أن كل رسول كان يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، وترك العبودية لسواه:

فقال عز وجل: « **لَقَد أَرْسَلنَا نُوحاً إلى قوْمِه فَقَالَ: يا قَوْمِ اعبُدُوا الله مالَكُم مِنْ إلٰه غيرُهُ** »[6].

وقال: « **وإلى عَادٍ أخَاهُم هُوداً قَالَ: يَا قوم اعبُدُوا الله مالَكُم مِن إلٰه غيرُه** »[7].

---

(٤) الأنبياء ــ الآية ٢٥.

(٥) النحل ــ الآية ٣٦.

(٦) الأعراف ــ الآية ٥٩.

(٧) الأعراف ــ الآية ٦٥.

وقال : « **وإلى ثَمُودَ أخَاهُم صالِحاً قَالَ : يا قَوْمِ اعبُدُوا الله مالَكُم مِنْ إلهٰ غيرُهُ** »[٨] .

وقال : « **وإلى مَدْيَنَ أخَاهم شُعَيْباً قَالَ : يا قَوْمِ اعبُدُوا الله مالَكُم من إلهٰ غَيْرُه** »[٩] .

وقال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام : « **وإبْرَاهيمَ إذْ قَالَ لقومه : اعبُدُوا الله واتَّقُوه** »[١٠] .

وأخبر عنه أنه قال لقومه : « **إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُون ، إنِّي وجَّهتُ وَجهِيَ للَّذي فَطَرَ السَّمواتِ والأرْضَ ، حَنيفاً ، وَمَا أنا مِنَ المُشرِكِينَ** »[١١] .

وهذه هي دعوة يوسف عليه السلام ، التي كان يدعو إليها من يلقاهم من العباد ، فقد أخبر عنه الله سبحانه أنه قال لصاحبيه في السجن ، وهو يشرح لهما ويبين لهما العقيدة السليمة : « **يا صَاحِبَي السِّجْنِ أأربَابٌ مُتَفَرِّقُون خَيْرٌ ، أمِ الله الوَاحِدُ القَهَّار . مَا تَعْبُدُون مِنْ دُونِه إلا أسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أنْتُم وآبَاؤكُم ، مَا أنْزَلَ الله بِها من سُلطَان ، إنِ الحُكْمُ إلا لله ، أمَرَ**

---

(٨)   الأعراف ــ الآية ٧٣ .

(٩)   الأعراف ــ الآية ٨٥ .

(١٠)   العنكبوت ــ الآية ١٦ .

(١١)   الأنعام ــ الآية ٧٨، ٧٩ .

ألا تَعْبُدُوا إلا إيَّاه، ذلك الدِّينُ القَيِّم، ولكنَّ أكثَرَ النَّاس لا يَعْلَمُون »(١٢).

وهذه هي دعوة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، قال تعالى: **« وقَالَ المَسِيحُ: يَا بَنِي إسْرائيل اعْبُدوا الله ربِّي وَرَبَّكُم »**(١٣). وقال أيضا: **« مَا قُلتُ لَهُم إلا مَا أمَرْتَني بِهِ، أنِ اعبُدُوا الله ربِّي وربَّكُم »**(١٤).

ثم جاء النداء الرباني في القرآن الكريم عاما للناس جميعا، فقال سبحانه وتعالى: **« يَا أيُّها النَّاسُ اعبُدُوا ربَّكُم الَّذِي خلَقَكُم، والَّذينَ مِن قَبْلِكم لَعلَّكم تتَّقُون »**(١٥). وجاءت الدعوة القرآنية لكل منتسب إلى رسول أرسله الله قبل محمد ﷺ، بأن يعود إلى تلك الحقيقة التي حرَّفتها الأجيال، أو نسيتها، فلا يعبد إلا الله تعالى، وأن يخلع عن نفسه كل عبودية لغير الله، فقال عز وجل: **« قل: يَا أهلَ الكِتَابِ، تَعالَوْا إلى كَلِمَة سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُم: أن لا نَعْبُدَ إلا الله، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أربابا مِنْ دُونِ الله »**(١٦).

---

(١٢) يوسف ــ الآيتان ٣٩،٤٠.

(١٣) المائدة ــ الآية ٧٢.

(١٤) المائدة ــ الآية ١١٧.

(١٥) البقرة ــ الآية ٢١.

(١٦) آل عمران ــ الآية ٦٤.

وهذا الذي جاءت به رسالات الله جميعا، هو نداء الفطرة الانسانية الأصيل، ومطلبها، الذي لا تتحقق سعادة الانسان بدونه، قال تعالى: « **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْها، لا تَبْدِيل لِخَلْقِ اللهِ، ذلك الدِّين القيِّم، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يَعْلمُون** »[١٧].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (يقول تعالى: فسدِّد وجهك، واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية، ملة إبراهيم، التي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره .....)[١٨].

وقد قال عز وجل: « **وإذْ أخذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَم مِن ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم، وأشْهَدَهُم على أنفسِهِم: أَلَسْتُ بِرَبِّكم؟ قَالُوا: بَلى شَهِدْنا، أنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيامَة: إنَّا كُنَّا عن هذا غَافِلِين** »[١٩].

---

(١٧) الروم ــ الآية ٣٠.

(١٨) ابن كثير ــ تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٤٣٢ ــ طبع دار إحياء الكتب العربية.

(١٩) الأعراف ــ الآية ١٧٢.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في ظلال هذه الآية الكريمة :

(إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري ، أودعها الله في هذه الكينونة ، وشهدت بها على نفسها ، بحكم وجودها ذاته ، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة . أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى ، فيحتاجون إلى التذكير والتحذير .

إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى ، فلا حجة لهم في نقض الميثاق ، حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل يذكرونهم ويحذرونهم ، ولكن رحمة الله وحدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه ، فقد تنحرف ، وألا يكلهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاها لهم ؛ فقد تضل ، وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)[٢٠] .

وأساس هذا التلاؤم بين دين الإسلام وفطرة الانسان أن كليهما من عند الله ، ففطرة الانسان خلقة الله وحده دون سواه ، والإسلام هو حكمه المنزل لهذه الفطرة ، فلا غرو أن لا تسعد هذه الفطرة ولا تستقيم إلا بالإسلام ، لأن الذي خلق ، سبحانه ،

---

(٢٠)   سيد قطب ــ في ظلال القرآن الكريم ــ المجلد الثالث ص ٦٦٨ ــ الطبعة الخامسة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م ، دار إحياء التراث العربي .

هو الجدير وحده بحكم مخلوقاته، والمستحق وحده أن تتوجه إليه هذه المخلوقات بالعبودية والخضوع.

ومن جهة أخرى فإن الانسان وكل مخلوق خاضع في وجوده وحياته لسنن الله وقوانينه، ومفطور على هذا الخضوع، وليس له أن يخرج عن شيء منها، فإذا حباه الخالق بعض الاختيار للابتلاء، كان نداء الفطرة السليمة أن تظل منسجمة مع تلك السنن والقوانين، وملتزمة بأمر الله وحكمه، وإلا فإن الخروج عن أمر الله عز وجل يكون انحرافا مفسدا لتلك الفطرة، ومن ثَمَّ مفسدا لحياة الانسان كلها.

فالإسلام هو الدين الذي ارتضاه رب العالمين للبشر جميعا، في كل زمان ومكان؛ ولذا قال سبحانه: « **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَام** »[21]، وقال أيضا: « **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دينا فَلَن يُقبَلَ مِنْه** »[22].

متطلبات تلك الحقيقة:

وتعني تلك العبودية لله تعالى، التي ينادي الإسلام بإقامة الحياة البشرية على أساسها، أن يعبد الناس الله وحده، ولا

---

(٢١) آل عمران ــ الآية ١٩.
(٢٢) آل عمران ــ الآية ٨٥.

يشركوا به شيئا، ولا يتخذوا إلها وربًّا غيره، ولا يستكبروا عن عبادته.

والعبادة — كما يقول ابن تيمية — اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة: فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، والاحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والانابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله(٢٣).

وبالإجمال فإن العبودية لله عز وجل تعني أن تكون وجهة الناس إلى الله سبحانه: في قلوبهم وعقولهم، وأقوالهم وأعمالهم. وأن يقبلوا حكمه عليهم، أمرا ونهيا، عن طواعية ورضى، فيحبوا ويفعلوا ويقولوا ما يحب سبحانه من الأحوال والأعمال والأقوال، ويبغضوا ويجتنبوا ما يكره منها. ويرفضوا بقلوبهم وعقولهم وأعمالهم حكم غيره أمراً ونهيا وتوجيها، إلا أن يكون منبثقا من حكم الله

---

(٢٣) ابن تيمية — العبودية — ص ٨٥.

تعالى وأمره ونهيه وتوجيهه[٢٤].

وهكذا فإن العبودية لله تعالى تعني أنه لا يجوز لأحد من خلق الله أن يعلو في الأرض، ويقهر الناس، ويخضعهم بالقوة والاكراه لارادته. بل تتطلب هذه العبودية أن يكون الجميع سواءً في خضوعهم لرب العباد، ليس لأحدهم أن يُنَصِّب نفسه فوق الناس يأمرهم وينهاهم كما يشاء ويهوى، ويضع لهم الأحكام، وينسخها ويبدلها ويحرفها كما يريد. ولكن يجب على الجميع أن يتخذوا الله وجهتهم في جميع أمور حياتهم: في عقيدتهم، وأخلاقهم، وقيمهم، وموازينهم التي يزنون بها الأشخاص وأفعالهم، وفي أحكامهم التي يطبقونها في علاقاتهم ومعاملاتهم.

كذلك فإن من مقتضيات هذه العبودية أن يشق الناس عصا الطاعة على اولئك الطغاة الذين اتخذوا من أنفسهم آلهة وأربابا من دون الله تعالى، فأخذوا يحللون ويحرمون حسب أهوائهم وشهواتهم، قال سبحانه وتعالى: « **وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ المُسرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُون فِي الأَرْضِ ولا يُصْلِحُون** »[٢٥].

وفي ظلال هذه العبودية للخالق عز وجل يطبق الجميع حكم الله وأمره، وتكون وظيفة الحاكم السهر على تطبيق شرع الله،

---

(٢٤) نفسه — ص ٥٢ وما بعدها.

(٢٥) الشعراء — الآيتان ١٥١، ١٥٢.

وحفظ الناس من الانحراف عن النهج الرباني، وسياسة أمور الدنيا بأوامر الدين. وليس له أن يأتي بشيء من عنده، ولا أن يحرف ما أنزل الله. وبهذا أُمر رسول الله ﷺ، فقال له ربه: « **وأنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أنزَلَ الله** »[26]، ولم يقل له: احكم بينهم بما ترى، وإنما بالحكم الذي أنزله الله. بل حذره من اتباع أهواء الناس، فقال سبحانه: « **ولا تَتَّبع أهواءَهم، واحذرهم أن يَفتِنُوك عَنْ بَعضِ ما أنزَلَ الله إليْك** »[27].

وأما بقية الناس فينفذون قانون الله، ويطيعون الحاكم في حدود ذلك القانون، فيشعرون بذلك أنهم محكومون للباري سبحانه. وهذا الشعور هو من العبودية لله تعالى. فإذا فارقهم، وظن الناس أنهم يذعنون للحاكم لما عنده من قوة السلطان، فقد انحرفوا بذلك عن عبادة الله، ووقعوا في الفساد، وعمهم الظلم والطغيان.

ذلك هو الوضع الذي يريد الله سبحانه أن يكون عليه المجتمع الانساني. وبذا يتبين أن دعوة الإسلام تهدف إلى تغيير سمات هذا المجتمع، وعقائده، وقيمه وأنظمته، ومفاهيمه التي يكون عليها قبل أن يأتيه هدى الله عز وجل، (فالإسلام فكرة

---

(٢٦) المائدة ـــ الآية ٤٩.

(٢٧) نفسها.

انقلابية ومنهاج انقلابي يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره، ويأتي بنيانه من القواعد، ويؤسس بنيانه من جديد، حسب فكرته ومنهاجه العملي)[٢٨].

ولعل توضيح ما يبتغي الإسلام انجازه في المجتمع البشري يتم بإبراز سمات المجتمع الجاهلي، ولو بصورة إجمالية[٢٩].

سمات المجتمع الجاهلي:

١ — إن من أبرز سمات المجتمع البعيد عن هدى الله سبحانه، فساد عقائده وتصوراته. وهذا الفساد هو أصل كل بلاء، ومصدر كل انحراف عن سَوِيّ الصراط؛ ذلك أن هذا المجتمع ينسى أفراده خالقهم، وينسون صفاته، وأنه المتصرف فيهم، وفي جميع المخلوقات، فينسون بالتالي حقوقه عليهم، فيضيّعونها، ويغفلون عن هداه المنزل فيهم، فيضلون، وتغيب عنهم الغاية التي خُلقوا من أجلها، فينفقون ما أودع فيهم من الطاقات فيما يتعسهم ولا يسعدهم ويتيهون في مسالك الحياة بلا هدف معقول، ولا غاية سامية. وتكون النتيجة ضنكا في العيش، وفسادا، وظلما، وتعاسة وشقاء.

---

(٢٨) أبو الأعلى المودودي — الجهاد في سبيل الله ص ١٣ — الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ /١٩٧٠ م.

(٢٩) انظر في تفصيل مظاهر الجاهلية في هذا القرن محمد قطب في كتابه «جاهلية القرن العشرين».

إذ كيف يستقيم للإنسان حال، وهو يفكر ويخطط، ويفعل ويقول، ويحب ويبغض، بعيدا عن ذكر الله وقدرته وجبروته وتدبيره ورقابته التي شملت كل شيء، وبعيدا عن نعمه الوافية الكائنة في كل منهاج ونظام أنزله للناس ليحتكموا إليه ؟! .

إن من أبسط قواعد النجاح في أية خطة مرسومة أن لا يغفل صاحبها، وهو يضعها عن شيء من الواقع، ولا شيء من الحقائق. فكيف ينجح الانسان ويسعد إذا كان يخطط لمسيرته في هذه الحياة، غافلا عن أكبر الحقائق، وهي حقيقة وجود الله الخالق الباري المصور ذي الأسماء الحسنى، والصفات العلى، الذي لم يكن مخلوق إلا من خلقه سبحانه، ولا نظام حكيم في هذا الكون إلا من تدبيره، ولا يتحرك شيء ولا يسكن إلا بإذنه ؟! وإذا كان الانسان نفسه بما فيه من عقل وقلب وجسد من خلق الله عز وجل، فكيف يستقيم هذا العقل، ويسعد هذا القلب، ويصلح هذا الجسد، إذا كان صاحبها يوجهها بمعزل عن الذي خلقها، ويخطط لحركاتها ونشاطاتها، وهو غافل عن سنن خالقها فيها، ومناهجه في تربيتها وتوجيهها ؟! .

٢ ــ وينتج عن هذا الفساد الكبير أن يضيّع الناس عبوديتهم لله تعالى، وأن يتجهوا بهذه العبودية إلى وجهات أخرى، وآلهة متعددة تصنعها أهواؤهم وشهواتهم. لأن كل من استكبر عن

عبادة الله عز وجل ، لا بد أن يعبد غيره ، فالانسان لا ينفك عن وصف العبودية ؛ لأنه كائن حي ذو حاجات ومطامع وشهوات ، ولأن له قلبا مفطورا على الحب والبغض ، والخضوع والخشوع ، والخوف والرجاء ، فإما أن يكون عبدا لله سبحانه ، وإلا فهو عبد تلك الحاجات والمطامع . وبعبارة أخرى فإن من لم يرض أن يكون عبدا لله استعبدته شهواته وحاجاته ورغائبه وطواغيت الانس والجن(٣٠) .

وعندما يغدو الناس هكذا يجري كل منهم وراء معبوده من الهوى والشهوة ، وتصبح مراكز التسلط في المجتمع هدفا للطامعين والطغاة . وفي هذه الأثناء، وفي هذا الجو الفوضوي الذي لا يُعرف فيه حق لصاحبه ، يقوم رجال أو طبقات من المجتمع ، فيتسنَّمون ذروة الألوهية ، ويستعبدون الناس بحيلهم ، ومكائدهم ، ويستغلون ما أوتوا من قوة وظروف مناسبة ، من أجل إجبار الناس ، أو إقناعهم بدعايتهم وأساليبهم الخبيثة على الخضوع والاذعان . فمنهم من يتبوأ مناصب السدنة والكهان ، ومنهم من يستأثر بالملك والتحكم على الناس في دمائهم وأموالهم ، ومنهم من يستبد بمنابع الثروة ، وخيرات الدنيا ورؤوس الأموال . بل إن من هؤلاء من وصل به الطغيان إلى ادعاء الألوهية جهارا ، ودعا

---

(٣٠)   ابن تيمية ــ العبودية ص ٥٦ .

الناس إلى عبادته والاذعان له، فقد حدثنا القرآن الكريم عمَّن قال منهم: « **ما علِمتُ لكُم مِن إلهٍ غيْري** »(٣١)، وقال: « **أنا ربُّكم الأعلى** »(٣٢)، وعمَّن قال: « **أنا أُحيِي وأُميتُ** »(٣٣)، وعمَّن قالوا: « **من أشَدُّ مِنَّا قُوَّة** »(٣٤)، وغيرهم ممن ادعوا الألوهية بغيا وعدوانا.

وفي المقابل تجد في ذلك المجتمع الجاهلي من يصل بهم الجهل بعد أن نسوا خالقهم، فنسوا أنفسهم، إلى أن يرضوا بدعاوي أولئك الطغاة، ويذعنوا عن رضى بطغيانهم، وينقادوا لأوامرهم(٣٥).

٣ ـــ وتكون النتيجة المحتومة لذلك كله انتشار الظلم، وعموم الفساد في كل نواحي الحياة، وظهور البغي والاستغلال بين الناس، كما قال تعالى: « **ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ والبَحْرِ بِمَا كَسَبَت أيْدِي النَّاسِ** »(٣٦).

ويرجع هذا إلى أن كل طاغوت من تلك الطواغيت التي

---

(٣١) القصص ـــ الآية ٣٨.

(٣٢) النازعات ـــ الآية ٢٤.

(٣٣) البقرة ـــ الآية ٢٥٨.

(٣٤) فصلت ـــ الآية ١٥.

(٣٥) أبو الأعلى المودودي ـــ الجهاد في سبيل الله ص ٢٤.

(٣٦) الروم ـــ الآية ٤١.

استكبرت في الأرض، يريد أن يحقق شهواته على أكمل وجه يستطيعه، فيسخر ما بين يديه من الوسائل والقوة لامتصاص قدرات الناس ومقدراتهم، لا يرعى لهم في ذلك حقا، ولا يصده خوف من الله عز وجل، قال تعالى: « **وَلا تُطِع من أغْفَلْنَا قَلْبَه عن ذِكرِنا واتَّبعَ هَوَاهُ وكان أمرُهُ فُرُطا** »(٣٧)، وأخبر سبحانه ــ وهو أصدق القائلين ــ عن اولئك المتسلطين الذين يظنون أنهم مالكون لرقاب الناس وأموالهم، فقال عز وجل: « **إنَّ المُلُوكَ إذَا دَخلُوا قَرْيَةً أفسَدُوها وجَعَلُوا أعِزَّةَ أهْلِهَا أذِلَّةً وَكذلك يَفْعَلُون** »(٣٨). وقال أيضا: « **وإذَا تَولَّى سَعى فِي الأرْض لِيُفسِدَ فيها، ويُهلِكَ الحرث والنَّسل، والله لا يُحِبُّ الفَسَاد** »(٣٩).

وبهذا ينتشر في هذه المجتمعات جميع وسائل الظلم والفساد، وتختل قيمها، ويُرفَع فيها من يستحق الخفض، ويَذِلُّ من هو جدير بالعلو والرفعة. ويثري جماعة على حساب الآخرين، ويوضع كل إنسان في غير مكانه. وتحاول الزمرة المتسلطة إلهاء عامة الناس عن منافستها في مراكزها، فتبيح لهم وتنشر بينهم من الشهوات والفواحش ما ينسيهم ماهم فيه من الذل والمهانة

---

(٣٧) الكهف ــ الآية ٢٨.

(٣٨) النمل ــ الآية ٣٤.

(٣٩) البقرة ــ الآية ٢٠٥.

والاستعباد، وبذلك يذعنون للواقع الذي دُبِّر لهم، فلا يثورون ولا يعارضون. وتغدو الرذائل في هذه المجتمعات أمرا عاديا لا تثير استنكارا ولا اشمئزازا. وتصير الفضائل غريبة مستنكرة، والذين ينادون بها غرباء. بل يصل الأمر بالمنتفعين من ذلك المستنقع الآسن أن يحاربوا كل دعوة إصلاحية، ويقفوا لها بالمرصاد، ويشوهوا وجهها بوسائل دعايتهم، ويصدوا عن سبيل الله من آمن بالله، ويبغونها عوجا، ويلاحقوا الدعاة بوسائل الترهيب تارة، والترغيب تارة أُخرى، والتشويش تارات.

ومن هذا نفهم معنى قوله تعالى: « **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** »[40]، وقوله أيضا: « **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** »[41]، فإن كل مظهر من مظاهر الظلم والفساد في هذه المجتمعات ليس إلا عرضا من أعراض الشرك وعدم الحكم بما أنزل الله تعالى.

أهداف الدعوة الإسلامية:

وإزاء هذه الحال فإن دعوة الله عز وجل تهدف إلى التغيير الشامل، واجتثاث الأصول التي تقوم عليها المجتمعات الجاهلية،

---

(٤٠) لقمان ــ الآية ١٣.

(٤١) المائدة ــ الآية ٤٥.

لتبنيها من جديد على أسس جديدة، وذلك من خلال ثلاثة أمور:

الأمر الأول:

تصحيح اعتقادات الناس وتصوراتهم عن الخالق والكون، وعن حقيقة أنفسهم، وأصلهم ومصيرهم ومركزهم بين المخلوقات، ووظيفتهم في هذه الحياة الدنيا، وعلاقتهم بخالقهم.

فنزلت تلك الدعوة لتعرف العباد بالله، وصفاته وأفعاله، وأنه هو الذي خلقهم، وخلق كل شيء، ويخلق ما يشاء، كما قال تعالى: « **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون** »(٤٢). وأنه سبحانه مالك الكون، وكل ما فيه مسير وفق أمره وتدبيره، وخاضع لسننه وقوانينه، وأنه سبحانه صاحب الأمر كله، منه العطاء والمنع، ومنه الحياة والموت، كما قال تعالى: « **لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ والأَرْض، يَبْسُط الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِر، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْء عَلِيم** »(٤٣).

كذلك جاءت دعوة الإسلام لتعرف الانسان على حقيقة نفسه، وأنه مخلوق من مخلوقات الله تعالى، وأن الله خلقه لعبادته،

---

(٤٢) يس — الآية ٨٢.

(٤٣) الشورى — الآية ١٢.

كما قال تبارك وتعالى : « **وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلا لِيَعبُدُون ما أُرِيدُ مِنهُم مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أنْ يُطْعِمُون إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِين** »(٤٤) .

كذلك جاءت لتعرف الناس على حقيقة هذا الكون وتبين لهم أنه مخلوق من مخلوقات الله أيضا ، مسخر للإنسان ليستغله وينتفع به وفق منهج الله سبحانه ، وليس فيه شيء يستحق أن يعبد أو يُخشى منه .

وجاء الإسلام أيضا ليصحح للبشر فكرتهم عن مصيرهم ، ومصير الوجود كله ، ويبين لهم أن هذه الحياة الدنيا ليست إلا مرحلة وممرا ، ودارا للابتلاء والعمل ، وأن هناك دارا أخرى هي دار القرار ، فيها الحساب ، والجزاء ، فإما نجاة وثواب ، وإما خسران وعقاب ، وأن الحساب والجزاء في تلك الدار يكونان على أساس العمل الذي قدمه الانسان في هذه الحياة الدنيا : « **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَةٍ خَيْراً يَرَه وَمَن يَعمَلْ مِثْقَال ذَرَةٍ شَرّاً يَرَه** »(٤٥) .

وجاءت دعوة الإسلام لتعرّف البشر أنهم جميعا في حفظ الله ورقابته ، وأن أعمالهم كلها محسوبة عليهم ، ومسجلة ، وأن الله سبحانه مطلع على كل شيء يجري في هذا الكون ، عليم بكل

---

(٤٤) الذاريات ــ الآية ٥٦ــ٥٨ .

(٤٥) الزلزلة ــ الآيتان ٧،٨ .

شيء، يستوي علمه في السر والعلن، والغيب عنده كالشهادة، قال تعالى: « **وَعِنْدَه مَفَاتِحُ الغَيْب لا يَعلمهَا إلا هُوَ، ويَعلَمُ مَا في البَرِّ والبَحْر، وَمَا تَسقُط مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعلَمُها، وَلا حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِس إلا فِي كِتَابٍ مُبِين** »[٤٦]. وقال تعالى: « **وَلَقَدْ خَلَقْنا الانْسانَ وَنعلَمُ ما تُوسوِسُ بِهِ نَفسُه وَنَحنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيد، إذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَال قَعِيد، مَا يَلْفظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْه رَقِيبٌ عَتِيدٌ** »[٤٧].

وهكذا فإن دعوة الإسلام تبتغي تربية العباد على المعرفة العميقة لله عز وجل وصفاته وأفعاله، وإيجاد القلب الموصول بالله تعالى حبا وخوفا ورجاء ومراقبة وخشوعا وخضوعا.

الأمر الثاني:

توجيه البشر إلى عبادة الله وحده، والقضاء على جميع مظاهر العبودية لغيره سبحانه؛ فقد جاءت دعوة الإسلام لتبين للناس جميعا أن العبادة لا يستحقها إلا رب العالمين، الذي تفرد بالخلق والتدبير، وأن غيره لا يستحق شيئا منها، إذ لا يرجى نفع ولا ضرر إلا منه سبحانه، بل جميع المخلوقات تحتاج إليه، ولا تقدر

---

(٤٦) الأنعام ــ الآية ٥٩.

(٤٧) ق ــ الآيات ١٦ــ١٨.

على شيء إلا بقدرته وتقديره، قال تعالى: « **إنَّ الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَه، وإنْ يَسْلبهُم الذُّبَابُ شَيئاً لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنه، ضَعُفَ الطَّالبُ والمَطْلُوب** »[٤٨].

فدعوة الإسلام تريد من الناس جميعا أن يتوجهوا بقلوبهم وأفعالهم وأقوالهم إلى ربهم، وأن يجعلوا الله سبحانه وتعالى حاكمهم في كل أمر من أمور حياتهم، فيتلقوا منه وحده مبادئهم وأخلاقهم وقيمهم ومناهجهم ونظمهم. وأن تكون كتبه المنزلة على رسُله المنبع الوحيد الذي يستقون منه جميع تلك الأمور، ولا يلتفتوا إلى ما يستحدثه الخلق من المناهج والأحكام والأخلاق، ويتحرروا من كل سلطان سوى سلطان الخالق جل وعلا.

الأمر الثالث:

ملاحقة الظلم والفساد في الأرض، وإقصاء أهله عن المواقع والمراكز التي تمكنهم من ممارسته على عباد الله، قال تعالى: « **لَقَد أرْسَلنَا رُسُلَنَا بالبيِّنات، وَأنْزَلنَا مَعَهُم الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْط** »[٤٩].

---

(٤٨) الحج ــ الآية ٧٣.

(٤٩) الحديد ــ الآية ٢٥.

وقد عُلم فيما تقدم أن أصل الظلم في الأرض هو تسلط فئات من البشر واغتصابها حقوق الألوهية في التشريع والتوجيه، وانطلاقها في ذلك من شهواتها وأهوائها، وإمساكها بوسائل القوة والتأثير، مما يتيح لها استغلال عباد الله وسلب مقدراتهم، وامتصاص قواهم وطاقاتهم، واللعب بعقولهم وعواطفهم.

فمن الطبيعي إذن أن يكون من أهداف الدعوة الإسلامية القضاء على هذه الفئات، وسد الطريق عليها في تحقيق أهدافها الدنيئة، وإبعادها عن مراكز التسلط والتوجيه، وانتزاع جميع ما تعتمد عليه من وسائل القوة والسلطان، وجعلها في أيدي المؤمنين الذين قال عنهم ربهم: « **الَّذِين إنْ مَّكَّناهُم في الأَرْضِ أقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بالمَعرُوف ونَهَوْا عن المُنْكَر ولله عَاقِبَةُ الأُمُور** »(٥٠)؛ ذلك أن وسائل القوة إن كانت في أيدي الطغاة وسائل هدم وتخريب، فإنها في أيدي اولئك المؤمنين وسائل بناء وعدل، لأن هؤلاء ينطلقون في سياسة الخلق من توجيهات ربهم العادلة، وأحكامه وتشريعاته الحكيمة، فلا خوف منهم؛ حيث وجد في قلوبهم الوازع عن الظلم والجور والفساد، وهو الخوف من الله عز وجل.

وخلاصة القول أن دعوة الله لا يقتصر هدفها على مجرد نشر

---

(٥٠) الحج ــ الآية ٤١.

أفكار نظرية بين الناس، ولكنها دعوة انقلابية تبتغي التغيير في جميع نواحي الحياة البشرية، وتغيير خط سيرها، بحيث تتجه إلى رب العباد.

ومن الجدير بالعلم في هذا المقام أن الله سبحانه لو شاء لأحدث ذلك الانقلاب، وحقق ما يريد بكلمته، ولكن شاءت حكمته تعالى أن يجعل العمل والجهاد لتحقيق تلك الأهداف، ومحاولة التغيير مجالا لاختبار الذين يدعون الايمان فيبلو الناس بعضهم ببعض، ويقيم الحجة لهم أو عليهم، ليجزيهم أو يجازيهم، في يوم الحساب والجزاء، قال عز وجل: « **ذَلِكَ وَلَو يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنهم، وَلكِن لِيَبلُوَ بَعضَكُم بِبَعض، والَّذين قُتِلُوا في سَبِيلِ الله فَلَنْ يُضِلَّ أعمالَهم** »(٥١). وقال أيضا: « **وَجَعَلْنَا بَعْضَكُم لِبَعْض فِتنَةً أتَصبِرُون وَكَانَ رَبُّك بَصِيرا** »(٥٢).

يقول ابن قيم الجوزية في توضيح معنى الاختبار في الجهاد: (لمَّا كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى؛ فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخَلِيُّ حرفة الشَّجي، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة « **قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبُّون اللهَ فاتَّبِعُوني يُحبِبْكم**

---

(٥١) محمد ــ الآية ٤.

(٥٢) الفرقان ــ الآية ٢٠.

الله »[٥٣]، فتأخر الخلق كلهم وثبت اتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة، وقيل لا تقبل إلا بتزكية « **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ** »[٥٤]، فتأخر أكثر المدعين للمحبة، وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلّموا ما وقع عليه العقد؛ فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين ....)[٥٥].

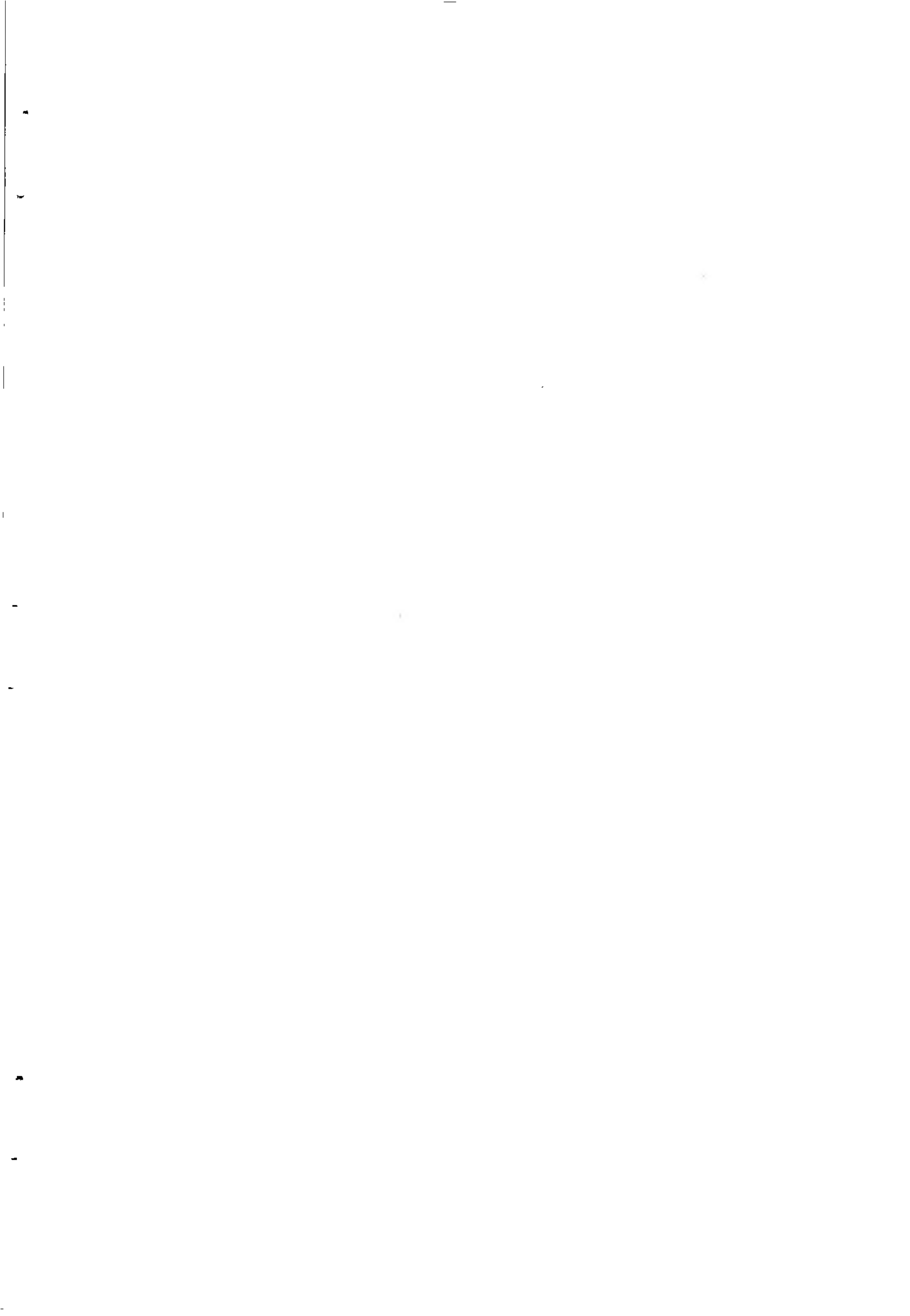
* * *

---

(٥٣) آل عمران ــ الآية ٣١.

(٥٤) المائدة ــ الآية ٥٤.

(٥٥) ابن قيم الجوزية ــ زاد المعاد في هدى خير العباد ج ٢ ص ٥٩ طبع المطبعة المصرية ومكتبتها.



المطلب الثاني
مفهوم الجهاد

معنى الجهاد في اللغة:

الجهاد في اللغة مشتق من الجهد، بالضم أو الفتح، وهو الوسع والطاقة. وقيل: الجهد بالضم هو الوسع والطاقة، وبالفتح هو المشقة.

كما يُستعمل بمعنى النهاية والغاية، وهو مصدر من جَهَدَ في الأمر جَهْدا، من باب «نفع»، إذا طلب حتى بلغ غايته في الطلب. ومن ذلك قوله تعالى: «**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**»(٥٦).

والجهاد يعود في اشتقاقه إلى الجهد بالفتح والضم جميعا. ومعناه في اللغة: بذل الوسع والطاقة في الطلب، واستفراغهما لتحقيق أمر من الأمور. وهو يقتضي طرفين يبذل كل منهما جهدا، أي طاقة ومشقة، في دفع الآخر(٥٧). فهو يتضمن

---

(٥٦) الأنعام ـــ الآية ١٠٩.

(٥٧) انظر: لسان العرب، القاموس المحيط، المصباح المنير، وابن بطال الركبي ـــ المستعذب في شرح غريب المهذب ج ٢ ص ٢٢٦ ـــ مطبوع في هامش المهذب ـــ مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر =

معنى المدافعة بين طرفين يبتغي كل واحد منهما تحقيق غايات متناقضة مع ما يبتغيه الطرف الآخر.

معنى الجهاد في شريعة الإسلام:

ذاك معنى الجهاد في لغة العرب. ثم أنزل الله القرآن على رسوله محمد ﷺ، هدى للناس، فبين لهم فيه حقائق الوجود، وشرع لهم الأحكام، فكان مما شرع لهم الجهاد. وقد جاء ذكره والأمر به في كتاب الله في عشرات المواضع. ثم جاء تبيانه على لسان رسول الله ﷺ في كثير من الأحاديث الصحيحة.

والذي يتتبع هذه النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة يتبين أن الشارع استعمل الجهاد في معنيين: أحدهما عام، والآخر خاص يدخل في مضمون الأول. فالأول يتضمن أنواعا كثيرة من المدافعة، وبذل الجهد. والثاني خاص بنوع واحد من هذه الأنواع. وفيما يلي بيان هذين المعنيين الشرعيين:

الجهاد بمعناه العام:

والجهاد بمعناه العام، كما استعمله القرآن الكريم، والسنة الشريفة يقترب من المعنى الذي وضع العرب له هذه اللفظة،

ـــ وانظر: ابن حجر العسقلاني ـــ فتح الباري ج ٦ ص ٢ ـــ المطبعة البهية المصرية ١٣٤٨ هـ.

مع ملاحظة القيد الذي قيده الإسلام للجهاد، بأن يكون في سبيل الله تعالى، ومن أجل إعلاء كلمته، وتحقيق مطلبه سبحانه في حياة الانسان. ومن حيث الأسلوب والكيفية والنظام الرباني الذي طلب الله من المؤمنين أن يكون جهادهم على وفقه.

فالجهاد بهذا المعنى الشامل هو: بذل الوسع والطاقة، وتحمل المشقة في مدافعة العدو الذي يبتغي انحراف الانسان عن طريق الله عز وجل، والوقوف بينه وبين هدى الله عز وجل، وأهداف دعوة الإسلام التي مر ذكرها في المطلب السابق. ولا فرق في ذلك بين أشكال ذلك البذل، ولا بين أصناف اولئك الأعداء الذين يصدون عن سبيل الله تعالى.

فيدخل في هذا المعنى للجهاد جميع الأوضاع والأحوال التي يقسر المؤمن عليها نفسه للالتزام بتوجيهات الإسلام، وأوامر الله، والابتعاد عن معصيته سبحانه. وجميع الوسائل التي يتخذها لحمل الناس على ذلك الالتزام. وكذلك كل جهد يبذله للمحافظة على تلك الأوضاع، ودفع كل من يعتدي عليها، أو يحاول تغييرها.

وبهذا يتبين أن الجهاد بهذا المعنى الواسع هو الجانب العملي الحركي من الإسلام؛ ذلك أن دعوة الإسلام تقوم على إيمان بالله

ربًّا وإلها، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، يمثل هذا الايمان شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وعلى عمل والتزام بمقتضى ذلك الإيمان؛ فإن قول العبد: (أشهد أن لا إله إلا الله) يتضمن تصديقه وإقراره بألوهية الله عز وجل واستحقاقه وحده دون غيره العبادة، وهي طاعته سبحانه في كل أمر، واقتران هذه الطاعة بنية الامتثال له سبحانه. ويتضمن هذا القول معنى آخر هو أخذ العهد على النفس أن تقوم بجميع مظاهر العبودية لله، واجتناب عبادة غيره بأي مظهر من هذه المظاهر. فهذه الشهادة — كما ترى — عقيدة، وتعهد بتنفيذ مقتضياتها في عالم الواقع.

وكذلك قول العبد: (أشهد أن محمدا رسول الله)؛ فإن فيه تصديقا لهذا الرسول ﷺ بكل ما جاء به من العقائد والشرائع، وأنها من عند الخالق الذي أقر بالشهادة الأولى بأنه وحده الذي يستحق العبادة والطاعة. كما أن فيه تعهدا بطاعته وتنفيذ ما أتى به من عند ربه، وعبادة الله سبحانه على وفق ما بينه عليه الصلاة والسلام بوحي من الله تعالى.

وكل ذلك يحتاج من المؤمن جهدا ومشقة لتحقيقه من جهة، وللحفاظ عليه من جهة أخرى: فالايمان الذي دخل فيه بالاقرار والتصديق، والالتزام بمقتضيات هذا الايمان، وكذلك المحافظة على هذا الايمان وهذا الالتزام من المعوقات والمثبطات النفسية

والخارجية، كل ذلك يحتاج إلى جهد ومشقة. وما يبذله العبد من الجهد في هذه السبيل يكون جهادا بالمعنى العام الذي تقدم ذكره.

ومن هنا يتبين لك أن قطع الايمان عن أي نوع من أنواع الجهاد بهذا المعنى الشامل فيه نقض لذلك العهد الذي أخذه المؤمن على نفسه، بالتصديق بألوهية الله تعالى، ورسالة نبيه محمد ﷺ. وأن صدق العبد فيما يقر به لسانه من الايمان يتناسب ارتفاعا وهبوطا مع الجهاد، بذلك المعنى المذكور، فيزيد بزيادته، وينقص بنقصانه.

وإلى هذا المعنى الشامل للجهاد أشار ابن تيمية، عندما عرفه بقوله: (الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحب الله من الايمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان)(٥٨).

كما عرَّفه الشريف الجرجاني بقوله: (الجهاد هو الدعاء إلى الدين الحق)(٥٩). والدعاء هو الدعوة، والدين الحق هو دين الإسلام، وقوامه عبادة الله عز وجل كما تقدم. فيدخل في هذه العبارة الشاملة كل دعوة يقوم بها العبد المؤمن إلى الاستسلام لرب

---

(٥٨) ابن تيمية ــ العبودية ص ٥١،٥٢ .

(٥٩) الشريف الجرجاني ــ التعريفات (مادة جهد).

العباد . فيدخل فيها دعوة الانسان لنفسه ، ودعوته لغيره ، وكلاهما يحتاج إلى الجهد والمشقة .

وبهذا المعنى العام للجهاد وردت آيات من الذكر الحكيم ، من ذلك قوله تعالى في سورة الفرقان ، وهي مكية ، « **وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً** »(٦٠) ، والمقصود في هذه الآية الكريمة الجهاد بالقرآن بما فيه من القوة والسلطان والتأثير العميق ، والبيان الوافي للحقائق والقيم والحِكَم(٦١) .

وفي سورة العنكبوت حيث يعلّم الله سبحانه عباده المؤمنين دروسا بليغة في جهاد الفتنة ، بأسلحة الصبر والثبات ، والثقة بالله ودينه ، يقول عز وجل : « **وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ العَالَمِين** »(٦٢) ، قال العماد ابن كثير في تفسير هذه الآية : (وقوله تعالى : « **وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّما يُجَاهِدُ لِنَفْسِه** » كقوله تعالى : « **مَنْ عَمِلَ صَالحاً فَلِنَفْسِه** »)(٦٣) ؛ فقد فسر الجهاد بالعمل في هذه الآية الكريمة . ثم نقل عن الحسن

---

(٦٠) الفرقان ــ الآية ٥٢ .

(٦١) ابن كثير ــ تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣٢١ ، ابن قيم الجوزية ــ زاد المعاد ج ٢ ص ٥٨ ، المطبعة العصرية ، سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ المجلد السادس ص ١٧٢ .

(٦٢) العنكبوت ــ الآية ٦ .

(٦٣) ابن كثير ــ تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٤٠٤ .

البصري، رحمه الله تعالى، أنه قال: (إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوما من الدهر بسيف)[٦٤].

وفي السورة السابقة نفسها، وهي سورة مكية[٦٥]، يقول سبحانه وتعالى: « **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** »[٦٦]، فالمقصود في هذه الآية الكريمة أن الذين صبروا على فتنة النفس وفتنة الناس، فجزاؤهم عند الله التثبيت على الطريق، وزيادة الهدى. وقد ورد عن بعض العلماء تفسيرها بأن الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون[٦٧].

ومن هذا المعنى للجهاد قول الله تعالى لعباده المؤمنين:

---

(٦٤) نفسه.

(٦٥) ذكرت بعض الروايات أن الاحدى عشرة الآية الأولى من سورة العنكبوت مدنية، لما ذكر فيها من الجهاد والمنافقين، ولكن الراجح أن السورة كلها مكية، وقد ورد في سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت في إسلام سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، وإسلامه كان في مكة. أما الجهاد المذكور فيها، فالمقصود به الجهاد ضد الفتنة، أي جهاد النفس لتصبر ولا تفتتن ــ انظر: سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ المجلد السادس ص ٣٨٤.

(٦٦) العنكبوت ــ الآية ٦٩.

(٦٧) ابن كثير ــ تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٤٢٢.

« **وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ** »(٦٨)؛ فإن حق الجهاد في الله سبحانه أن يسخر المؤمن جميع ما آتاه الله من القوى والطاقات في حمل نفسه وغيره على طاعة الله وعبادته.

ويظهر هذا المعنى العام للجهاد بوضوح في قوله عليه الصلاة والسلام: « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل »(٦٩).

ومن هنا ورد في الحديث الشريف تسمية الحج بالجهاد، لما فيه من بذل الجهد، وتحمل المشقة، فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله: نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا

---

(٦٨) الحج ـــ الآية ٧٨. وممن فسر الجهاد المذكور في هذه الآية بالمعنى المشار إليه الإمام النووي رحمه الله تعالى، حيث استشهد بها في باب المجاهدة من كتابه رياض الصالحين، وقد خص هذا الباب بذكر الأحاديث الصحيحة التي فيها حث على الاجتهاد في العبادة والعمل ـــ انظر ص ٥٧ من الكتاب المذكور ـــ طبعة اليوسفية بمصر سنة ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م.

(٦٩) رواه مسلم ـــ انظر: مختصر صحيح مسلم ـــ رقم ٣٥ طبع الكويت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م

نجاهد؟ قال: « لكن أفضل الجهاد حج مبرور »(٧٠).

الجهاد بمعناه الخاص:

ذلك هو المعنى العام الواسع للجهاد في الإسلام، ويدخل فيه أشكال وصور كثيرة جدا، سنذكر شيئا منها في المطلب القادم إن شاء الله تعالى. وهذه الصور الكثيرة تتفاوت في أهميتها وخطورتها، وأهمها ما كثر فيه الجهد، وزاد فيه البذل والتضحية، لذلك كان أهمها وأخطرها ما كان فيه تضحية بالنفس، أو تعريض لها للقتل في سبيل الله تعالى. ولخطورة هذا النوع من الجهاد، أبرز في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ إبرازا شديدا، وخُصَّ بالذكر والحث عليه أكثر من غيره. وكان من مظاهر هذه العناية أن خص بعنوان الجهاد؛ لظهور معنى المجاهدة والمعاناة فيه، ولعظم ما فيه من البذل والتضحية، ولشمول أثره المبارك لصاحبه ولغيره، فاستحق بهذا ذلك العنوان الذي هو في أصله موضوع لعموم أنواع البذل والتضحية، لأن مجمع ما يبذل من الطاقات والقوى هو النفس، فإذا قُدِّمت في سبيل الله تعالى، فقد قدَّم صاحبها جميع ما أوتي من قوة، فيكون هذا النوع من البذل متضمنا لجميع أنواع التضحية.

ولهذا فإن أكثر ما أطلق عليه الجهاد في القرآن هو هذا

(٧٠) رواه البخاري — انظر: فتح الباري ح ٦ ص ٣.

النوع، من ذلك قوله تعالى: « **انْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالا، وَجَاهِدُوا بأمْوَالِكُم وأنفسكُم في سَبِيلِ الله** »[71]، وقوله تعالى: « **لا يَسْتَأذِنُكَ الّذين يُؤمِنُونَ بالله واليَوْمِ الآخر أن يُجَاهِدُوا بأموالِهم وأنفسِهم، والله عَلِيمٌ بالمُتقين. إنَّمَا يَسْتَأذِنُكَ الّذين لا يُؤمِنُون بالله واليَوْم الآخر، وارْتَابَت قُلوبُهُم، فَهُم في رَيْبِهم يَترَدَّدُون** »[72]. وقوله تعالى: « **لا يَسْتَوي القَاعِدُونَ من المُؤمِنينَ غيرُ أولي الضَّرَر والمجاهدون في سَبِيلِ الله بأمْوَالِهم وأنْفُسِهم، فَضَّل الله المُجَاهِدينَ على القَاعِدينَ دَرَجَة، وكُلّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى، وَفضَّل الله المُجَاهِدينَ على القَاعدين أجراً عَظِيماً** »[73]. ففي هذه الآية الكريمة مقابلة ومفاضلة بين هذا النوع من الجهاد، وبين الأنواع الأخرى التي تدخل في عموم معنى الجهاد؛ لأن القاعدين لا شك في أنهم يجاهدون بتلك الأنواع الأخرى؛ ولذلك دخلوا في جملة من وعدهم الله الحسنى، ولكن المقاتلين فضلهم الله على اولئك، بما زادوا عليهم من البذل والتضحية، حتى خُصوا باسم المجاهدين دون اولئك. ومثل هذه المقابلة والمفاضلة ورد فيما رواه أبو هريرة، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: دلّني على عمل يعدل

---

(٧١) التوبة ــ الآية ٤١.

(٧٢) التوبة ــ الآيتان ٤٤،٤٥.

(٧٣) النساء ــ الآية ٩٥.

الجهاد، قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك، فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟ قال: ومن يستطيع ذلك؟!(٧٤).

وبناءً على ما تقدم فإن الجهاد بمعناه الخاص هو بذل الجهد والطاقة بالقتال في سبيل الله تعالى(٧٥). ويدخل في معناه كل جهد مباشر يبذل من أجل هذا القتال، سواء أكان سابقا عليه، أم لاحقا له. فيدخل فيه الاعداد والتمرين، والحراسة والمرابطة وغير ذلك من الأعمال التمهيدية، أو التابعة للقتال. وإن كانت هذه الأعمال تتفاوت في أجرها عند الله عز وجل بتفاوت ما فيها من التضحية، ورأسها جميعا هو الاشتراك الفعلي في مقاتلة أعداء الإسلام، وهو المقصود في كثير من الآيات، كالذي في قوله تعالى: « **إنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ المُؤمِنِينَ أنفُسَهم وَأمْوَالَهم بأنَّ لَهُم الجَنَّةَ، يُقاتِلون في سَبِيلِ الله، فَيَقتُلُون ويُقتَلون، وَعْداً عَلَيْه، حَقّاً في التَّوْراةِ والإنْجِيلِ والقُرآنِ، وَمَنْ أوْفَى بِعَهْدِه مِنَ الله، فاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُم الَّذي بَايَعْتُم بِهِ، وَذلك هُو الفَوْزُ العَظِيمُ** »(٧٦).

---

(٧٤) رواه البخاري ــ انظر فتح الباري ج ٦ ص ٤.

(٧٥) الكاساني ــ بدائع الصنائع ج ٧ ص ٩٧ ــ الطبعة الأولى ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م ــ مطبعة الجمالية.

(٧٦) التوبة ــ الآية ١١١.

وقد ذُكر هذا النوع من الجهاد باسمه الخاص، وهو القتال، في كثير من الآيات، وعندما نزل فرضه على المسلمين جاءت تسميته بهذا الاسم الخاص به. ولعل الحكمة في تسميته أحيانا باسمه الخاص، والعدول عن الاسم العام وهو الجهاد، أنه كلما تعلق حكم خاص أوبيان خاص بنوع الجهاد الذي هو القتال، سواء أكان هذا الحكم أو البيان مما يتعلق بالدنيا، أم كان متعلقا بالآخرة، ورد النص عليه باسمه الخاص دون ذلك العنوان العام الذي يدخل فيه غير ذلك النوع من أنواع الجهاد.

ففي الآية السابقة مثلا، نُصَّ على المنزلة العظيمة لهذا النوع من الجهاد، ولما كانت هذه المنزلة خاصة بمن يقاتل فعلا، فيقتُل ويُقتَل، كانت تسميته باسمه الخاص به.

وكذلك في قوله تعالى: « **كُتِبَ عَلَيْكُم القِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُم** »(٧٧). فسمي هذا النوع من الجهاد — في هذا المقام — باسمه الخاص به في اللغة؛ حتى يعلم أن بذل النفس غدا فرضا على المؤمنين بعد أن لم يكن كذلك في أوائل الدعوة، وبعد أن كانت الفرضية مقتصرة في أول الأمر على أنواع الجهاد الأخرى، فجاء النص على القتال بعينه ليلتحق بغيره من أنواع الجهاد في حكم الفرضية، وليكون النص محكما، لا مجال فيه لتأويل؛

---

(٧٧) البقرة — الآية ٢١٦.

وحتى لا يظن ظان، لو ذكر مجرد لفظ الجهاد، أن المطلوب فقط هو بذل الجهد، ولو لم يكن فيه تضحية بالنفس.

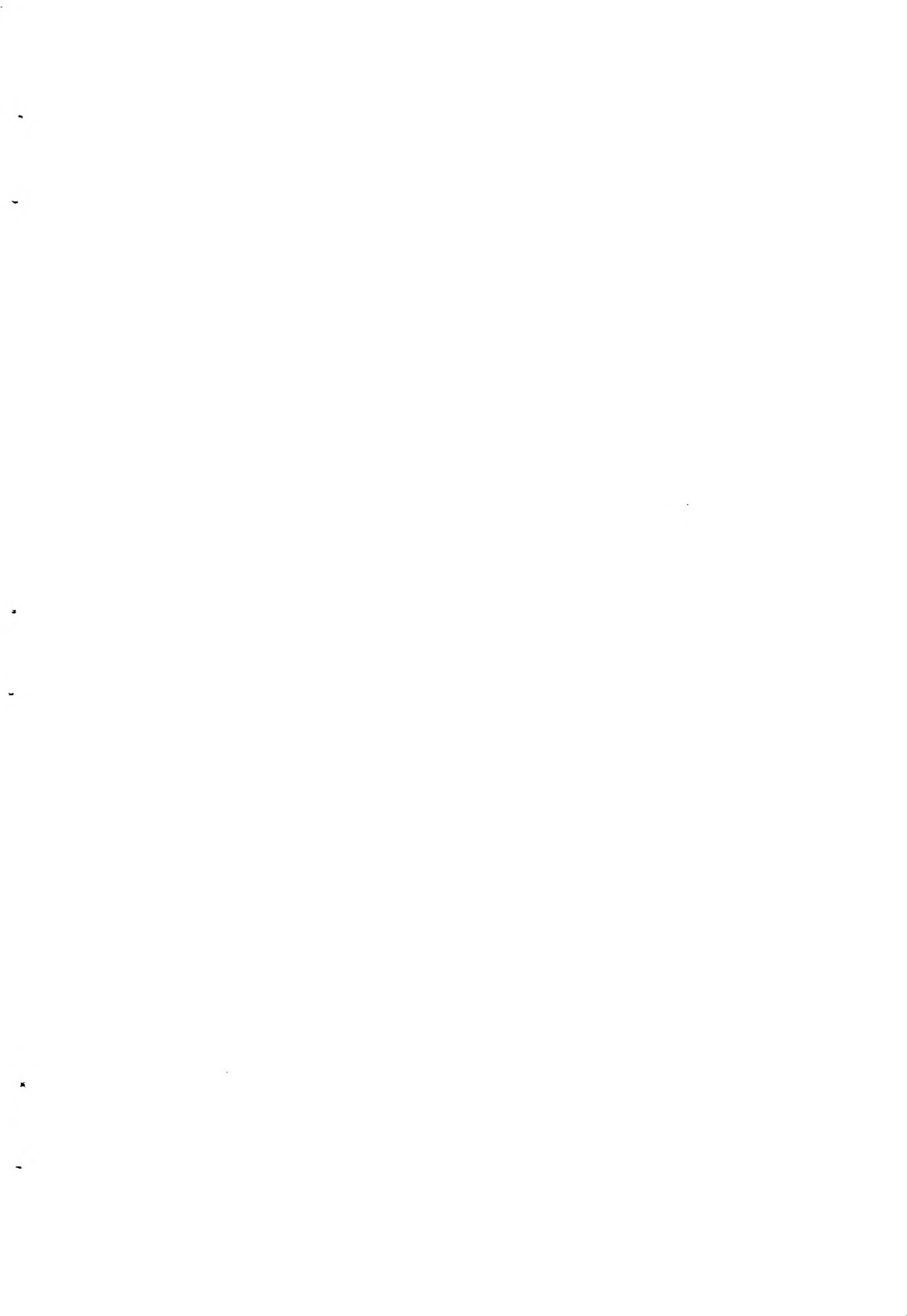
ويظهر هذا المعنى أيضل في قوله تعالى: « **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أمْواتاً، بَلْ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهم يُرزَقُون، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُم الله مِنْ فَضْلِه، وَيستَبشِرُون بالَّذينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِنْ خَلفِهِم، ألَّا خَوْفٌ عَلَيْهم وَلا هُم يَحْزَنُون، يَستَبشِرون بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وَفَضْلٍ وأنَّ الله لا يُضيع أجْرَ المُؤمِنِين** »[٧٨]. فهذه الحياة البرزخية الكريمة خاصة بنوع من أنواع الشهداء، وهم اولئك الذين يُقتلون في سبيل الله تعالى، مع أن الأحاديث الصحيحة دلت على أن هناك أصنافا أخرى من الشهداء[٧٩]، لهم أجرهم عند ربهم، ولكنهم لا يصلون هذه الدرجة التي يصل إليها شهداء المعركة.

* * *

---

(٧٨) آل عمران ــ الآيات ١٦٩ـــ١٧١.

(٧٩) انظر: صحيح البخاري مع فتح الباري ج ٦ ص ٣٢ وما بعدها، وصحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ص ٦٣ وما بعدها ــ المطبعة المصرية.



المطلبُ الثالثُ
مركزُ الجهادِ منَ الدعوةِ الإسلاميَّة وغايتُهُ

مما تقدم يتبين أن الدعوة الإسلامية دعوة حركية، وليست نظرية، وإنما تبتغي إحداث آثار عملية في حياة البشر. ومن الطبيعي أن دعوة هذا شأنها، وهذه أهدافها لا بد أن يكون لها وسائل تحقق بها تلك الأهداف، وتحدث بها ذلك الانقلاب الانساني المنشود.

كما أنه من الطبيعي أيضا أن يكون اعتمادها في تلك الوسائل على أتباعها الذين حملوها، فكل من يدخل في تلك الدعوة يحملها ويضع نصب عينيه الاسهام في تحقيق تلك الأهداف أو بعضها. وتكون المجموعة بكاملها مكلفة للعمل على الوصول إلى تلك الغايات بقدر استطاعتها ومكناتها.

فهذه الفئة بأفرادها ومجموعها، بحكامها ومحكوميها، برجالها ونسائها يجب أن تظل في حركة دائبة نحو تلك الأهداف، وفي إطار المنهج الذي رسمه لها ربها. وهذه الحركة المستمرة هي الجهاد بمعناه العام.

وعلى هذا فإن الجهاد كلمة جامعة شاملة يدخل فيها جميع أنواع السعي وبذل الجهود والكفاح، واستخدام شتى الوسائل لإحداث ذلك التغيير الذي تبتغي إحداثه دعوة الله المرسلة إلى بني البشر.

ومن هذا المفهوم الواضح الشامل للجهاد تبين أنه يقع من الدعوة في مركز الوسيلة لتحقيق أهداف الإسلام: فهو الوسيلة لتعريف الناس بالتصور الصحيح عن الخالق والكون والحياة، وهو الوسيلة لاقناع الناس بالعودة إلى ربهم، وعبادته. وهو الوسيلة للحيلولة بين الطغاة والمستغلين وبين الناس وتمكينهم من الاختيار الحر، والنظر السليم، وتذوق طعم الدلائل والبراهين والآيات التي نصبها الله للعباد، والتي ما تفتأ الطواغيت تصد عنها خلق الله، كما قال عز وجل: « **أَلا لَعْنَةُ الله على الظَّالِمِينَ الَّذيَن يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَها عِوَجاً** »(٨٠).

وبذا نفهم لماذا سمى رسول الله ﷺ الجهاد ذروة سنام الإسلام؛ فإنه القوة الدافعة لهذه الدعوة الربانية نحو تعميم خيرها على البشر، وهو الرصيد المستمر لها، يجدد نشاطها، ويظهر فاعليتها في الوجود. ولولاه لضمرت الدعوة، وانكمشت وافسحت المجال لغيرها من الدعوات الباطلة. وهذا واقع يؤيده واقع تاريخ

---

(٨٠) هود ـــ الآيتان ١٨، ١٩.

أمة الإسلام؛ فقد كان أثرها في الأمم، ونشر العدل والرخاء والسعادة، يتناسب دائما طردا مع قوة جهادها، وحركتها وبذلها وتضحيتها.

ولعل من معاني تلك التسمية أن الجهاد فوق ما تقدم عنوان الصدق في حمل الدعوة الإسلامية، وبرهان الاخلاص في ذلك الحمل؛ فإنه الدليل الذي يقدمه الانسان على صدق ما يقر به لسانه من الايمان.

في سبيل الله:

ولعل ذلك الفهم للجهاد وطبيعته، ومركزه من الدعوة وأهدافها، يبين بوضوح معنى ذلك الاصطلاح القرآني الملازم لكلمة الجهاد في معظم الأحيان، وهو وصفه دائما «أنه في سبيل الله»؛ فإن سبيل الله دعوته، وما رضيه للعباد من الهدى[٨١]. فالجهاد الإسلامي يكون دائما في هذه السبيل، من

---

(٨١) انظر في تفصيل «معنى سبيل الله»: كامل سلامة الدقس ــ آيات الجهاد في القرآن الكريم ص ١٠ــ١٦، طبع دار البيان / الكويت ١٣٩٢ هـ. وخلاصة ما وصل إليه: (أن الآيات القرآنية تجعل مفهوم «في سبيل الله» مرادفا لمعنى طريق الله ودعوته ودينه وتعاليمه الايمانية والأخلاقية والاجتماعية والتهذيبية التي احتواها القرآن، وهدى إليها الرسول ﷺ، وبعبارة أخرى الدعوة الاسلامية نفسها). وانظر أيضا معنى «في سبيل الله» عند الإمام الطبري ــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٣ ص ٥٦٣ ــ طبع دار المعارف بمصر.

أجل رد العباد إليها ودفع من يصد عنها ولا يكون في غيرها . فإذا انحرف عنها لم يكن جهادا إسلاميا ولم يقبله الله عز وجل ، بل كان وبالا على صاحبه وعلى الناس ، يقول سبحانه وتعالى : **« الَّذينَ آمَنُوا يُقَاتِلُون فِي سبيل الله ، والَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُون فِي سبيلِ الطَّاغُوت »**(٨٢) .

وهكذا فإن كل نشاط يبذله المؤمن من أجل استقامة نفسه والناس على أمر الله ، فهو في سبيل الله ، وكل نشاط يبذله من أجل إعلاء كلمة الله ودينه فهو في سبيل الله ، وكل نشاط لا يبتغي فيه ذلك ، وإنما يطلب فيه شهوته أو علو نفسه أو تحقيق مآربه الشخصية ، فهو في سبيل الطاغوت ؛ ولذلك فإن كل نشاط يزاوله الكفار ، وكل حرب يخوضونها في سبيل الطاغوت ، لأنهم لا يعرفون الله ، ومن باب أولى لا يعرفون سبيله سبحانه .

وقد ورد في الحديث الصحيح أنه قال أعرابي للنبي ﷺ : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل لِيُرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله »(٨٣) .

---

(٨٢) النساء ـــ الآية ٧٦ .

(٨٣) رواه مسلم ـــ انظر مختصر صحيح مسلم ج ٢ حديث رقم ١٠٨٨ .

كيفية إسهام الجهاد في تحقيق أهداف الدعوة :

وإذا كان الجهاد الإسلامي وسيلة لتحقيق أهداف الدعوة الإسلامية على وجه الأرض، فإنه من الجدير بالذكر أن تلك الأهداف ليست سواءً فيما يناسبها من أنواع الجهاد وأشكاله، وبيان ذلك: أن تلك الأهداف منها ما يتعلق بقلب الانسان وعقله، وهما الهدفان الأول والثاني: تصحيح عقائد الناس، وتوجيههم نحو عبادة الله عز وجل. ومنها ما يتعلق بظاهره وأوضاعه، وهو الهدف الثالث: ملاحقة الظلم والفساد، واجتثاث أصله من الأرض.

ولا شك أن النوع الأول لا سبيل للقوة المادية إليه، فإن السيف لا يستطيع اقناع القلوب والعقول، ولا يستطيع توجيهها إلى باريها، ولا يُطلَب من المجاهدين هذا المطلب، حيث لا جدوى فيه أصلا، وهذا هو معنى قوله تعالى: « **لا إكرَاهَ فِي الدِّين قَدْ تَبَيَّن الرُّشدُ من الغيِّ فَمَن يَكْفُر بالطَّاغُوتِ وَيُؤمِنْ بالله فَقَد استَمْسَكَ بالعُرْوَة الوُثقى لا انفِصَام لَهَا، والله سَمِيعٌ عَلِيم** »[84].

وإنما ينفع مع القلوب والعقول جهاد اللسان والبيان والحجة والأسوة الحسنة، والمعاملة الطيبة وتوجيه النظر إلى آيات الله

---

(٨٤) البقرة ــ الآية ٢٥٦.

البينات في القرآن، أو إلى شرائع الله الحكيمة العادلة، أو إلى أثر هذا الدين في إسعاد الناس، ونحو هذا من الأساليب.

وأما استعمال القوة المادية، فيكون لتحقيق الهدف الثالث(٨٥)؛ لأن الظالمين والمتسلطين لا يجدي معهم الاقناع بالحجة والموعظة الحسنة في الأغلب، حيث تعميهم شهواتهم عن رؤية النور، والاقرار بالحق، فلا بد من قهرهم وكسر شوكتهم، وتحطيم وسائلهم ومؤسساتهم، وتخليص العباد من تضليلهم وإفسادهم، وهذا لا يكون بالجهاد السلمي، وإنما بالقتال وإعداد العدَّة من جيوش وسلاح، لأنهم لا يجابهون جند الله بالحجة والبرهان، وإنما بالمكر والخداع والسيف والسنان، ولو اقتُصِرَ على مجابهتهم باللسان لأخرسوه بأسلحتهم، فكان لا بد من مقابلتهم بمثل سلاحهم.

كذلك فإن هذا الأسلوب من الجهاد لا بد منه لدفع الفتنة عن المسلمين، وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، قال تعالى: « **والفِتْنَةُ أشَدُّ مِنَ القَتْلِ** »(٨٦)، وقال

---

(٨٥) انظر: صبحي المحمصاني ــ الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية ص ٥٣٢ ــ الطبعة الأولى ــ دار العلم للملايين ــ بيروت، القانون والعلاقات الدولية في الإسلام ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ــ بيروت، سيد قطب ــ في ظلال القرآن الكريم ــ المجلد الأول ص ٤٢٩.

(٨٦) البقرة ــ الآية ١٩١.

سبحانه : « **أُذِنَ لِلّذين يُقَاتَلُون بأنَّهم ظُلِمُوا وإنَّ الله على نَصْرِهم لَقَدِيرٌ، الَّذينَ أُخرِجُوا من ديارهم بِغَير حَقٍّ إلا أن يَقُولوا رَبُّنا الله** »[87]. ولقد فُتِن المسلمون في دينهم منذ أول يوم قامت فيه دعوة الله على الأرض، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم بسبب هذه الدعوة. ولقد شهدت الأندلس من بشاعة التعذيب والتقتيل لفتنة المسلمين عن دينهم ما كان سببا للقضاء على كل أثر للإسلام في تلك البقعة من الأرض[88]. كما شهدت الديار المقدسة من الهجمات الصليبية للقضاء على الإسلام والقرآن ما هو معروف ومسطَّر في كتب التاريخ. وما يزال المسلمون في هذه الأيام يُفتَنون عن دينهم في شتى بقاع الأرض: في المناطق الشيوعية ومن دار في فلكها، وفي المناطق الصليبية ومن دار في فلكها، وعند عباد الأوثان والقرود والبقر.

وفي مواجهة ذلك شرع الله الجهاد وفرضه على المؤمنين به، ليكونوا وسائل قدره في الحفاظ على بذرة الايمان في الأرض، وليتخذ منهم سكانا لجنته التي أعدها لمن ينصر دينه في الحياة الدنيا، ويثبت على الولاء له إلى حين لقياه سبحانه وتعالى.

---

(٨٧) الحج — الآيتان ٣٩، ٤٠

(٨٨) محمد الغزالي — التعصب والتسامح ص ٣١١—٣١٨ — منشورات دار البيان — الكويت. سيد قطب — في ظلال القرآن الكريم — المجلد الأول ص ٤٣٠.

لكن يجدر بالملاحظة أن هذا النوع من الجهاد (القتال) ليس الغاية منه إجبار الناس على اعتناق الإسلام، وإنما المقصود إجبار الطواغيت والمتسلطين منهم على التخلي عن مراكز السلطة والتوجيه، واخلاء المكان لعباد الرحمن، ليحكموا بين العباد بما أنزل الله، فإن لم يقبلوا يُقاتَلوا حتى يقبلوا، وليس أدل على ذلك من السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، رضوان الله عليهم، في تخيير العدو عند مجابهته بين أمور ثلاثة هي: الإسلام أو الذمة أو السيف[٨٩]؛ فلم يكونوا يعملون فيهم السلاح إذا رفضوا الإسلام حتى يرفضوا ذمة المسلمين، والخضوع لأحكام العدل الالهي التي لا تصلح الحياة الدنيا بدونها، فإن قبلوها كف عنهم القتال؛ لأنهم بقبولها يكونون قد تنازلوا عن حكم الناس بوسائل الطغيان، وأفسحوا المجال لشريعة الله عز وجل وأحكامه الدنيوية أن تأخذ مكانها في حكم العباد، وللمؤمنين في تطبيق العدل على الخلق، فيكون، بذلك، قد تحقق

---

(٨٩) ثبت عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا بعث سرية قال لأميرها: (إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ..... فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ....) ــ جزء من حديث رواه مسلم ــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١١ ص ٣٧،٣٨ .

هدف الدعوة في منع الظلم والفساد، وإبعاد أهله وأعوانه عن الطريق[٩٠].

وأساس النظرة الإسلامية في هذا الصنيع: أن الكون كله لله، والأرض أرضه والبشر مخلوقاته، استخلفهم في الأرض، ليعمروها ويستثمروها، ويصلحوا فيها ولا يفسدوا، وأن صلاحها لا يكون إلا بسياسة الخلق فيها حسب قوانين الله وأحكامه ومناهجه، وأن فسادها نتيجة سياستها بأهواء الناس وشهواتهم، وأنه ليس لمخلوق، فردا كان أو جماعة، أن يتسلط على عباد الله، ويخضعهم لأحكامه، وإنما الحق في ذلك لله؛ لأنه المالك لكل شيء، وهو الذي صلحت بقوانينه ونواميسه السموات والأرض، فلا صلاح للبشر إلا بأحكامه وتوجيهاته، وإلا فلا بديل لها إلا الظلم والفساد والتعدي ومجاوزة الحدود.

كذلك فإن ضلال الناس وجهلهم وبعدهم عن معرفة الله ومعرفة أحكامه سبحانه، وحقائق الكون ووظيفتهم في هذه الدنيا، ليس إلا ثمرة لما يفرضه المتسلطون والطغاة عليهم من

(٩٠) سيد قطب ـــ السلام العالمي والإسلام ص ١٧٠ــ١٧٦ ـــ الطبعة الخامسة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م، وانظر: الباجي ـــ المنتقى شرح الموطأ ج ٣ ص ١٥٩ ـــ طبعة مصورة عن الطبعة الأولى ـــ مطبعة السعادة بمصر ١٣٣٢ هـ.

الأنظمة الفاسدة، والمناهج السقيمة، والقيم الزائفة التي ينشرها اولئك المنتفعون بذلك الجهل والضلال. ولا سبيل إلى تخليصهم من الظلم والفساد إلا بابعاد تلك الأنظمة والمناهج عن كواهلهم.

ومن هنا يتضح دور المؤمنين في الأرض؛ فإنهم جند الله، الذين آمنوا بتلك الحقائق، فكلفهم ربهم بالتحرك والجهاد من أجل أن تكون الحاكمية لله وحده على العباد، ومن أجل أن تُنتَزعَ هذه الحاكمية من أيدي المتسلطين المعتدين على حقوق الألوهية، فينعم الناس بعدل الله المنزل لهم، ويتقوا شر الظلم والفساد الذي تثمره شهوات المتسلطين وأحكامهم وأساليبهم في سياسة الناس وحكمهم وتوجيههم. فالمطلوب من هؤلاء المؤمنين فوق الدعوة بالحجة والبيان والتبليغ باللسان أن يزيحوا من طريق الدعوة الربانية اولئك الظالمين الجاثمين على صدور العباد ومقدراتهم، الذين يصدون الخلق عن معرفة الحق، ولو كان ذلك باستعمال القوة والسلاح، وهكذا فإن جند الله يتقدمون إلى الناس بعقيدة تعلموها من ربهم، يبلغونها لهم باللسان والحجة والبيان، فمن قبل فأخوهم في الدين، يسير في ركبهم، ويحمل مثلما حملوا، ومن أبى تقدموا إليه بعدل الله المتمثل في شرائعه وقوانينه المنظمة لحياة الناس. وأما الذين لا يقبلون عدل الله،

ويصرون على إقامة الحواجز والعقبات بين الحق والعدل وبين شعوبهم، فهؤلاء يتقدم إليهم المجاهدون بالقوة والسلاح، ليزيحوهم من طريق دعوة الحق، فتنال شعوبهم نصيبها من عدل الإسلام، وتأخذ حريتها في اختيار الدين الذي ترتضيه من غير إجبار ولا إكراه.

وبهذا يتضح أن القتال الإسلامي ليس موجها ضد الأفراد بعينهم، ولا لإجبار أحد على اعتناق الإسلام، وإنما هو قتال للأنظمة السياسية والاجتماعية، موجه ضد القائمين عليها من الحكام وأتباعهم، وضد وسائلهم ومؤسساتهم المسخرة لحماية تلك الأنظمة والمناهج والقيم، وأما الأفراد فالمقاتلون المسلمون لا يتعرضون لهم إلا بقدر ما يسهمون في المدافعة عن تلك الأنظمة[٩١]. ولذلك حرم الإسلام على المجاهدين أن يتعرضوا بسوء لجميع الناس الذين لا يشتركون في المعركة، من شيوخ ونساء وأطفال ومزارعين ورجال دين في معابدهم، كما هو مشهور

---

(٩١) ابن تيمية ـ السياسة الشرعية ص ١٠٦ طبع بيروت ـ دار الكتب العربية، ابن رشد ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد ج ١ ص ٣٩٩، ٤٠٠ طبع ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م، السرخسي ـ المبسوط ج ١٠ ص ٢٩،٥ ـ الطبعة الثانية ـ دار المعرفة، الحطاب ـ مواهب الجليل ج ٣ ص ٣٥٠ـ٣٥٢ ـ الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

في وصايا الرسول عليه الصلاة والسلام لأمراء جيوشه ووصايا الخلفاء الراشدين لأمرائهم وقادتهم[92].

وهكذا فإن الإسلام لا يعد القتال غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق السلام الحقيقي بين العباد، بكف أيدي الظالمين عن الاعتداء على الانسان في عقله وعواطفه وأمواله ومقومات إنسانيته، وليس المقصود الانسان المسلم فحسب، وإنما المقصود كل الناس في كل بقعة من بقاع هذه الأرض، فإن الحق الذي يغار عليه الله وعباده المؤمنون لا يختلف باختلاف الحدود والبلاد[93].

وبهذا يتبين أن القتال الإسلامي لم يكن يوما للاستعلاء على الشعوب المغلوبة وإذلالها، وإخضاعها للدولة الإسلامية، لأن المجاهدين لا يخرجهم للجهاد إلا إعلاء كلمة الله، وتحرير العباد من الذل والخضوع لغير الله عز وجل، حتى لقد قال الفقهاء: (لو أن أمير بلد عاهد المسلمين على أن يدفع لهم الجزية ويسالمهم ويعاونهم على عدوهم بشرط أن يتركوا له التجبر على رعيته

---

(٩٢) انظر بعض الأخبار الدالة على ذلك في نيل الأوطار ـــ الشوكاني ج ٧ ص ٢٦٠ـــ٢٦٤ الطبعة الثالثة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م، وانظر ابن رشد ـــ بداية المجتهد ج ١ ص ٤٠٠ـــ٤٠١.

(٩٣) سيد قطب ـــ في ظلال القرآن الكريم ـــ المجلد الخامس ص ٦٠٤.

فإنه لا يحل للمسلمين معاهدته على ذلك)[٩٤] .

ويؤيد ما تقدم من الفهم لغاية القتال في الإسلام أن كثيرا من الآيات التي دعت المؤمنين إلى قتال الكفار عللت هذه الدعوة بمنع الفتنة والفساد، من ذلك قوله تعالى : « **وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لا تَكُونَ فِتنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله** »[٩٥]، وقوله تعالى : « **إلا تَفعَلُوه تَكُنْ فتنةٌ في الأرضِ وَفَسادٌ كَبِير** »[٩٦]، وهذه الفتنة أمر لازم للأنظمة الكافرة، وليس من الممكن أن يقوم في الأرض نظام صالح، ويؤتى أكله خيرا وسعادة وسلاما وعدلا، لأبناء البشر، إلا بعد أن ينتزع زمام الأمر من أيدي المفسدين في الأرض، الصادين عن سبيل الله، ويحل محلهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا .

وأما تصحيح عقائد الناس، وتوجيههم نحو الايمان بربهم، فلا يجبر عليه أحد منهم، وإنما يدعون إليه بعد ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، ويقتربون منه شيئا فشيئا، بعد أن يتحرروا من عبودية الطواغيت، فيصيروا أقرب إلى قبول الحق مما كانوا عليه؛

---

(٩٤) نقل ذلك محمد عبد الله السمان في كتابه « العقيدة والقوة معا » ص ١٠٨ الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م.

(٩٥) الأنفال ـ الآية ٣٩.

(٩٦) الأنفال ـ الآية ٧٣.

حيث كانت الحقائق تحجب عن عقولهم وبصائرهم، فمن قَبِلَ بعد ذلك وآمن فنعما هي، وإلا فإنه لا إكراه في الدين، كما أوصى رب العالمين، ولا يُجبَر أحد على تغيير معتقده[97].

* * *

---

(٩٧) انظر : الرازي ـــ التفسير الكبير ج ٢ ص ٣١٩ ـــ الطبعة الثانية ـــ ١٣٢٤ هـ .

المَطلبُ الرابعُ
أشكالُ الجهادِ ومراتبُهُ

على ضوء ما علم من أهداف الدعوة الإسلامية، وحقيقة الجهاد وغاياته، يتضح أن الجهاد له مفهوم شامل يدخل فيه أشكال كثيرة ومراتب متعددة، ويتناول كل حركة أو وضع يتخذه المسلمون من أجل تحقيق اعلاء كلمة الله، وإزالة العقبات من وجهها، وقهر أعدائها، سواء كان ذلك على مستوى الأفراد، أو على مستوى الأمة. ولهذا فإن حصر هذه المراتب والأشكال الجهادية أمر صعب جدا، غير أنه يمكن تقسيمها من جهتين اثنتين هما: جهة الأعداء وجهة الوسائل.

أشكال الجهاد بالنظر إلى الأعداء

والمقصود بالأعداء جميع العقبات والموانع والدوافع التي تحول دون تحقيق أهداف الدعوة الإسلامية في حياة الانسان، فإن للجهاد أشكالا في مواجهة هؤلاء الأعداء، وهم كثر يساند بعضهم بعضا، وتختلف أساليبهم في الصد عن سبيل الله، خلقهم الله سبحانه للامتحان والابتلاء، قال تعالى: « **وَجَعَلْنَا بَعْضَكُم لِبَعْضٍ فِتْنَةً أتَصْبِرُون، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً** »[٩٨]،

---

(٩٨) الفرقان ــ الآية ٢٠.

وقال أيضا: « **وَلَنَبْلُوَنَّكُم حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنكُم والصَّابِرِين، وَنَبْلُوَ أخبَارَكُم** »(٩٩)، وهؤلاء الأعداء هم(١٠٠):

١ ــ شهوات النفس:

وما جعل فيها من الغرائز وحب الدنيا، وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: « **إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوء** »(١٠١)، فأمر عز وجل بجهاد هوى النفس فقال: « **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَألْهَمَهَا فُجُورَها وتَقْوَاها، قَدْ أفلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** »(١٠٢)، وقال رسول الله ﷺ: « المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب »(١٠٣).

وقد عني بعض العلماء الصالحين بتأليف مصنفات بينوا فيها آفات النفس وأساليب جهادها كالإمام الغزالي رحمه الله، وخاصة في كتابه إحياء علوم الدين.

---

(٩٩) محمد ــ الآية ٣١.

(١٠٠) ذكر هذه الأصناف من أعداء الانسان ابن قيم الجوزية في زاد المعاد ج ١ ص٢٩٣ــ٢٩٥ المطبعة العصرية وفصل في طرق جهادها، كما أشار إليها وإلى أشكال جهادها ابن حجر العسقلاني ــ فتح الباري ج ٦ ص ٢، والقرطبي ــ الجامع لأحكام القرآن ج ١٢ ص ٩٩، مطبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

(١٠١) يوسف ــ الآية ٥٣.

(١٠٢) الشمس ــ الآيات ٧ــ١٠.

(١٠٣) رواه أحمد ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٦ ص ٢١ ــ المطبعة الميمنية بمصر.

هذا ويكون جهاد أهواء النفس بعدة أمور أهمها:

أ ـ جهادها على تعلم الهدى ودين الحق من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وسيرة الصحابة والصالحين. فإن هذا مبدأ جهاد النفس، إذ لا بد من معرفة الطريق قبل المسير، من أجل هذا رفع الله العلماء، فقال عز وجل: « **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذينَ يَعْلَمُون والَّذينَ لا يَعْلَمُون** »(١٠٤)، وقال سبحانه: « **يَرْفَعِ الله الَّذينَ آمنوا مِنْكُم والَّذينَ أوتُوا العِلْمَ دَرَجات** »(١٠٥). ومن أجله أيضا أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام أن العلم أفضل أنواع العبادة: « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم »(١٠٦).

ب ـ جهادها على الالتزام بما تعلّمت؛ لأن معرفة الطريق لا تجدي إن احجم الانسان عن سلوكها، بل تضره؛ إذ بها تقوم الحجة عليه عند ربه، ولذلك قال الشاعر:

لو كان للعلم من دون التقى شرف
لكان أشرف خلق الله إبليس

وهذا هو منهج الصحابة رضوان الله عليهم في تربية

---

(١٠٤) الزمر ــ الآية ٩.

(١٠٥) المجادلة ــ الآية ١١.

(١٠٦) رواه الترمذي وقال عنه: حسن ــ رياض الصالحين ص ٤٥١.

نفوسهم، وهو المنهج الذي رسمه لهم رسول الله ﷺ، فقد روي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن: عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا ــ أي الصحابة ــ فتعلمنا العلم والعمل(١٠٧).

وأول الالتزام وأجلّه هو التزام القلب بعبادة الله عز وجل، فقد تعلم أنه لا إله إلا الله، وأنه وحده المستحق للعبادة والتوجه إليه، ويكون ذلك بالاخلاص لله وخشيته ورجائه وحبه ومراقبته والتوكل عليه، والانابة إليه، والاستعانة به، وغير ذلك من أعمال القلوب. ثم التزام الجوارح بطاعة الله، والانتهاء عما نهى عنه في كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله عليه الصلاة والسلام.

جـ ــ جهادها على الدعوة إلى ما تعلمت من الهدى والحق، وإلا كان صاحبها من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات.

وهذا النوع من الجهاد فرض على كل مسلم في حدود استطاعته ومكناته ؛ لذلك كثرت الآيات الداعية إليه، الحاثة

---

(١٠٧) نقله عن ابن تيمية كامل سلامة الدقس ــ آيات الجهاد في القرآن الكريم ص ٢١.

عليه، من ذلك قوله تعالى: « **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** »(١٠٨)، وقوله: « **فَادْعُ واسْتَقِم كَمَا أُمِرْتَ ولا تَتَّبِع أَهْوَاءَهم** »(١٠٩)، وقوله: « **ادْعُ إلى سَبِيلِ ربِّك بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَة الحَسَنَة** »(١١٠)، وغيرها كثير.

وتعود أهمية هذا النوع من الجهاد إلى أن غيابه يفسح المجال لأعداء الله وأعداء الخير من شياطين الجن والانس، لينشروا باطلهم وفسادهم كما أخبر سبحانه وتعالى عنهم فقال: «**المُنَافِقُون والمُنافِقَاتُ بَعضُهُم مِنْ بَعْضٍ يأمُرُونَ بالمُنْكَرِ وَيَنْهَوْن عن المَعْرُوف** »(١١١)، فإذا خلا لهم الجو عاثوا في الأرض فسادا، وقلبوا الحقائق، ولعبوا بعقول الناس، وصدوا عن سبيل الله، وأضلوا عباده، فكان لا بُدَّ من تحرك المؤمنين، وإلا أصابهم ما يصيب غيرهم؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى يصف حزبه المؤمنين: « **والمُؤمِنُونَ والمُؤمِنَاتُ بَعضُهُم أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأمُرونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْن عَنِ المُنْكَر** »(١١٢)، وقال الرسول

---

(١٠٨) يوسف ــ الآية ١٠٨.

(١٠٩) الشورى ــ الآية ١٥.

(١١٠) النحل ــ الآية ١٢٥.

(١١١) التوبة ــ الآية ٦٧.

(١١٢) التوبة ــ الآية ٧١.

عليه الصلاة والسلام: « والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم »(١١٣).

ولمَّا كانت النفس تؤثر السلامة في طبيعتها، ولا تحب أن تتعرض للتعب والمشقة بدعوة الناس، وما قد تلاقيه من الأذى؛ لذلك كان لا بد من مجاهدتها، ودفعها لتبين للناس طريق الهدى الذي تعلمته من ربها، وتحثهم على السير فيه.

د ـــ جهادها على الصبر على مشاق الدعوة: فإن الجهاد من النوع السابق وهو الدعوة إلى الله يتبعه حتما أذى ومضايقات من الناس، بسبب جهلهم، وحفاظا على مكاسبهم الدنيوية التي ارتبطت بالانحراف، فلا بد من الصبر على ذلك كله. والمثل الأعلى للنفس المؤمنة في هذا الجهاد رسول الله ﷺ؛ حيث لا قى من صنوف الأذى والتعذيب، هو وصحابته، رضي الله عنهم ما لا يعلم مداه إلا الله، فصبر، وجاهد نفسه على الصبر حتى نصره الله العزيز الحكيم.

٢ ـــ الشيطان:

فقد أخبرنا سبحانه وتعالى عن هذا العدو، وأساليبه، والذين

---

(١١٣) أخرجه الترمذي وقال عنه: حسن ـــ صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ٩ ص ١٧ ـــ دار العلم للجميع.

يؤمنون بالقرآن يؤمنون بكل ما جاء به، وأن هناك شيطانا يوسوس للعبد ويزين له، ويدفع في عقله الريب والشكوك والشبهات، ويثبطه عن الخير، ويحثه على الشر، ويلقي له الأماني الكاذبة. وأخبرنا عن هذا المخلوق أنه نذر نفسه من أول الأمر لمحاربة الانسان، وصده عن سبيل الله، قال تعالى مخبرا عنه: « **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُم صِراطَكَ المُسْتَقِيم، ثُمَّ لآتِيَنَّهُم من بَيْنِ أَيْدِيهِم وَمِنْ خَلْفِهِم وَعَنْ أَيْمَانِهِم وَعَنْ شَمَائِلِهِم وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُم شَاكِرِينَ** »[114]، وقال عنه أيضا: « **قَالَ ربِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأزَيِنَنَّ لَهُم في الأَرْضِ وَلأغْوِيَنَّهُم أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنهُم المُخْلَصِينَ** »[115]. بل أخبرنا سبحانه أن هناك شياطين كثيرة من الجن والانس يضلّون ويضلّلون، قال تعالى: « **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ والجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً** »[116]، وقال عز وجل « **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِم لِيُجَادِلُوكُم** »[117].

ولذلك أمرنا سبحانه بمجاهدة الشيطان بشدة واستمرار؛ لأنه

---

(١١٤) الأعراف ــ الآيتان ١٦، ١٧

(١١٥) الحجر ــ الآيتان ٣٩، ٤٠.

(١١٦) الأنعام ــ الآية ١١٢.

(١١٧) الأنعام ــ الآية ١٢١.

عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد، فقال تعالى: « **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً** »(١١٨)؛ فالأمر باتخاذه عدوا فيه دلالة على وجوب استفراغ كل جهد ووسع في محاربته ومجاهدته. ولأنه يصد عن جميع أنواع الجهاد. وتتلخص أساليب الشيطان في محاربة العبد في أمرين:

أ ــ ما يُلقي إليه من الشكوك والشبهات في إيمانه وعقيدته، حول خالقه وصفاته وكتابه ورسوله عليه الصلاة والسلام، وما أخبر به من اليوم الآخر وغيره من الغيبيات.

ويكون جهاد الشيطان في مثل هذه الحال بمواصلة ذكر الله، واستحضار الدلائل العظيمة، والآيات البينات، التي تدل بيقين على الخالق وصفاته وصدق رسوله، وما أضعف كيد الشيطان بجانب آيات الله وحججه المبثوثة في كل مخلوق، وبخاصة فإن كل ما يلقيه الشيطان من الشبهات ليس إلا مجرد أوهام وشكوك لا دليل عليها ولا بُرهان، فلا يقف أمام الأدلة والبراهين ومعجزات الله، وصدق رب العزة إذ يقول: « **إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً** »(١١٩).

ب ــ ما يزينه الشيطان للعبد من الشهوات الدنيوية

---

(١١٨) فاطر ــ الآية ٦.

(١١٩) النساء ــ الآية ٧٦.

الكثير، والأماني والغرور، والمكاسب العاجلة.

ويكون جهاده في هذه الحال بالصبر على أمر الله، وعن ارتكاب المعاصي، والاستقامة على طريق الهدى، وتكذيب الشيطان ووعده ومعصية أمره وارتكاب نهيه(١٢٠).

وهكذا باليقين والصبر يردّ كيد الشيطان، قال تعالى: **« وَجَعَلْنَا مِنْهُم أئمَّةً يَهْدُونَ بِأمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بآياتِنا يُوقِنُون »**(١٢١).

هذا هو ما نحسه من وسائل إبليس في غواية الانسان، وهو ما أخبر به ربنا في كتابه العزيز، ولكننا لا ندري كنه هذا المخلوق حتى نعرف كيفيات أعماله، وإنما نعلم بالخبر الصادق أن إبليس يزين ويغوي على صورة من الصور، وأن هذا الاغواء يعتمد على نقاط الضعف الغريزية في هذا الانسان(١٢٢)؛ فهو يأتيه من غرائزه فلا يزال يثيرها ويستفزها حتى يغلبه، فيندفع معها اندفاع الحيوان، وغرائز الانسان وشهواته أضعف ما فيه، ولذلك كان

(١٢٠) ابن قيم الجوزية ــ زاد المعاد ج ١ ص ٢٩٣ ــ المطبعة العصرية.

(١٢١) السجدة ــ الآية ٢٤.

(١٢٢) انظر: سيد قطب ــ في ظلال القرآن ج ٧ ص ٤٨١، كامل سلامة الدقس ــ آيات الجهاد في القرآن ص ٣٦، ولمعرفة تفاصيل أساليب الشيطان في تضليل الانسان انظر: عمر الأشقر ــ عالم الجن والشياطين ص ٦٧ وما بعدها ــ الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.

إبليس أقدر على عبد الهوى من عبد الرحمن، فالقلب الطاهر من الهوى ليس للشيطان عليه سلطان، قال تعالى: « **إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ** »[123]، وأما عبد الهوى فهو هدف إبليس، قال الله عز وجل: « **واتْلُ عَلَيْهِم نَبأ الّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فانْسَلَخَ مِنْهَا، فَأتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فكانَ مِنَ الغَاوِين، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، وَلكِنَّهُ أخْلَدَ إلى الأرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ** »[124].

٣ ــ الكفار والمنافقون وأهل المنكر والفسق:

اولئك هم أعداء الانسان في الداخل، والكفار والمنافقون أعداؤه في الخارج، وقد استسلموا لأهوائهم وشياطين أنفسهم، ونصبوها جندا لخدمة إبليس، فيجب على المؤمنين جهادهم بكل وسيلة مشروعة، حتى لا يمتد شرهم، ويستشري فسادهم في الأرض. ويغلب على جهاد الكفار القتال بالسيف، وذلك عندما لا يكونون قد دخلوا في ذمة المسلمين؛ لأنهم حينئذ يحيطون أنفسهم بسياج من القوة المادية، فلا ينفع معهم سوى هذا النوع من الجهاد.

وأما المنافقون فيغلب على جهادهم المقارعة بالحجة والبيان،

---

(١٢٣) الاسراء ــ الآية ٦٥.

(١٢٤) الأعراف ــ الآيتان ١٧٥، ١٧٦.

وتفنيد حججهم وكشف أساليبهم وتعريتها أمام الناس، وابعادهم عن مراكز التحكم في العباد، وخاصة أن الله عز وجل بيَّن لنا صفاتهم وأحوالهم ووسائلهم. وكذلك الرسول عليه الصلاة والسلام بيَّن لنا خصالهم التي تدل عليهم(١٢٥). وأما أهل المنكر فهم الذين استجابوا للشيطان فيما زيَّن لهم من الشهوات، وإن لم يستجيبوا له في شبهاته التي يثيرها حول العقيدة، ويكون جهادهم بأمرهم بالمعروف، ومنعهم من المنكر باللسان واليد، وكُره ما هم عليه من المنكر والفسق.

أهمية تلك الأنواع:

ولا شك في أن لكل نوع من الأنواع السابقة أهمية خاصة في تحقيق أهداف الدعوة، والمجتمع المسلم لا يستغني عن أي منها، لأن كل نوع منها يحمي ثغرة من ثغور تلك الدعوة؛ ولذلك وردت الأحاديث الصحيحة والآيات الكريمة ببيان فضلها، والدعوة إليها جميعا:

١ ــ فأما جهاد النفس فهو أصل تلك الأنواع جميعا، وهي متفرعة عنه، يقول ابن قيم الجوزية: (فإنه مالم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكن جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي

---

(١٢٥) انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوي ــ المجلد ٢٨ ص ٢٣٣ ــ الطبعة ١٣٨٣ هـ ــ مطابع الرياض.

بين جنبيه قاهر له متسلط عليه)[١٢٦] .

٢ ــ وأما جهاد الشيطان فهو ضروري للتمكن من ممارسة النوعين الآخرين من الجهاد ؛ لأن الشيطان عدو يثبط الانسان عن جهاد نفسه وجهاد الكفار والمنافقين ؛ فإنه يعد الأماني ، ويُمَني الغرور ويعد الفقر ويأمر بالفحشاء وينهى النفس عن التقى ، ويزين لها الانفلات من قيود الحق ، فلا بد من جهاده ليتمكن الانسان من جهاد نفسه ، وجهاد أعدائه .

٣ ــ وأما جهاد الكفار والمنافقين وأهل المنكر فهو مشتمل على جميع أنواع الجهاد ؛ لأنه جهاد للنفس على التضحية باللذة العاجلة في سبيل السعادة الأبدية ، وهو جهاد للشيطان الذي يزين القعود ، ويمني بالسلامة العاجلة ؛ ولذلك ورد ما ورد فيه من الفضل والأجر في القرآن الكريم ، وعلى لسان الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

ثم ان نفع هذا الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا ، وهو في الوقت نفسه مشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة ؛ فهو مشتمل على محبة الله ، والاخلاص له ، والتوكل عليه ، وتسليم النفس والمال له ، والصبر والزهد ، وغيرها[١٢٧] .

---

(١٢٦) زاد المعاد في هدي خير العباد ج ١ ص ٢٩٣ .

(١٢٧) ابن تيمية ــ السياسة الشرعية ص ١٠٥ طبع بيروت ــ دار الكتب العربية

أشكال الجهاد من حيث الوسائل:

وكما خلق الله سبحانه وتعالى اولئك الأعداء، وأعطاهم من الوسائل والأسلحة، ليبتلي بهم عباده المؤمنين، فإنه عز وجل أمد المؤمنين بالعون والأسلحة والوسائل، فأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول، ونزَّل لهم الكتب، وأرسل لهم الرسل، ومعهم المناهج السليمة، والخطط الحكيمة، والأوضاع الصحيحة، وأمرهم باستعمالها في الجهاد. ومن هنا فإن الجهاد يتنوع في أساليبه وأشكاله بتنوع ما أعطي الانسان من القوى والوسائل:

(١) فقد يكون جهادا بالعقل والفكر، يدفع به وساوس الشياطين من الانس والجن، ومبتكراتهم في تضليل العباد، وصدهم عن الحقائق، وتثبت به النفس على الحق ويسخَّر لاكتساب العلم الصادق، بالنظر في آيات الله في الكون، وآياته المنزلة في الكتاب الكريم.

(٢) وقد يكون جهادا بالجوارح، وفي أولها اللسان، ينطق بالحق، ويوجه الأنظار نحو آيات الله، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويفند حجج الأعداء، ويذكر الله سبحانه، فيحرك القلب نحو ربه، فيملؤه بأحاسيس ومشاعر، تعتبر غذاءً وزاداً، تمده بالقوة والعزم في جهاده.

(٣) وقد يكون جهادا بالقلب، يحب الخير والمعروف، ويكره الشر والمنكر ويوصَل بالله عز وجل، بالذكر المستمر.

(٤) وقد يكون بالمال، يُبذل في سبيل الدعوة وأهدافها، ويُسخَّر من أجل تحقيق تلك الأهداف، ويُصنع به السلاح، ويعان به المجاهدون وأسرهم، وينفق في كل مجال يعود على الدعوة وأهلها بالخير، أو يدفع عنها الشر[١٢٨].

(٥) وقد يكون بالنفس، يضحى بها في القتال في سبيل الله، وتدفع لله ثمنا لعزة الدعوة والدعاة في الدنيا، ومهرا لرضى الله وجنته وثوابه في الآخرة.

مراتب تلك الأشكال:

ومراتب هذه الأشكال الجهادية تتفاوت من حيث الفضل والأجر، لتفاوتها من حيث التضحية، فما كان أشد تضحية، كان أفضل عند الله وأثقل في ميزانه سبحانه، لدلالته على قوة الايمان، وشدة الثقة بالباري عز وجل، ولا شك أن الجهاد بالنفس أعلاها وأكرمها عند الله؛ ولذلك قال سبحانه: « **لا يَسْتَوِي القَاعِدُون مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أولي الضَّرَرِ والمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأمْوَالِهِم وأنْفُسِهِم، فضَّلَ الله المُجَاهِدِينَ بأمْوَالِهِم وأنفُسِهِم عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً، وَكُلًّا**

(١٢٨) الجصاص ــ أحكام القرآن ج ٣ ص ١٤٦.

وَعَدَ اللهُ الحُسنَى وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدين على القَاعِدِينَ أجْرَاً عَظيماً »[129].

ولذلك أجمع العلماء على أن المقام في ثغور المسلمين أفضل من المجاورة في المساجد الثلاثة[130]؛ لأن الرباط نوع من التضحية بالنفس، وقد قال الله تعالى: « **أجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَن آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخرِ وَجَاهَدَ في سَبِيلِ اللهِ؟ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ** »[131]. كما ذكر بعض العلماء أن الجهاد بالنفس أفضل من الحج والعمرة ومن صلاة التطوع وصوم التطوع[132]، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ

---

(١٢٩) النساء ـــ الآية ٩٥.

(١٣٠) ابن تيمية ـــ مجموع الفتاوي ـــ المجلد الثامن والعشرون ص ٥،٦.

(١٣١) التوبة ـــ الآية ١٩. وقد ورد في سبب نزول هذه الآية عن النعمان ابن بشير رضي الله عنهما قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمُر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم ... فأنزل الله تعالى « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله » رواه البخاري ومسلم ـــ انظر: مختصر صحيح مسلم ج ٢ حديث رقم ١٠٧٧.

(١٣٢) انظر: ابن تيمية ـــ السياسة الشرعية ص ١٠٥ ـــ طبع بيروت ـــ دار الكتب العربية.

أنه سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: « الايمان بالله ورسوله »، قيل: ثم ماذا؟ قال: « الجهاد في سبيل الله »، قيل: ثم ماذا؟ قال: « حج مبرور »(١٣٣). وقد روى مسلم في صحيحه عن سلمان الفارسي أن النبي ﷺ قال: « رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطا مات مجاهدا، وأجري عليه رزقه من الجنة، وأَمِنَ الفُتَّان »(١٣٤). وقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحب إليَّ من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود(١٣٥).

ولهذا السبب نفسه أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام أن من أعلى مراتب الجهاد قول الحق أمام أهل الجور من الحكام، فقال ﷺ: « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله »(١٣٦)؛ ولعل هذا يفسر ذلك

---

(١٣٣) أخرجه البخاري ومسلم ـــ انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥٠ ـــ المطبعة العصرية بالكويت ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م.

(١٣٤) رواه مسلم ـــ انظر: مختصر صحيح مسلم للمنذري ـــ حديث رقم ١٠٧٥.

(١٣٥) ابن تيمية ـــ مجموع الفتاوي ـــ المجلد ١٨ ص ٦.

(١٣٦) رواه الترمذي والحاكم وقال: صحيح الاسناد ـــ انظر: الترغيب والترهيب للمنذري ج ٣ ص ٢٢٥ ـــ الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م.

الترتيب الذي ذكره الرسول عليه الصلاة والسلام في حديثه الشريف: « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان »[١٣٧]؛ لأن في الرتبة الأولى تعريضا للنفس للأذى، ويخف هذا في الجهاد باللسان، ثم في الجهاد بالقلب؛ ولذلك كان أضعف الايمان، ولكنه جهاد ضروري؛ لأنه الحد الفاصل بين الايمان والكفر، كما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام. فالقلب إذا لم يعرف المعروف ولم يحبه ويحب أهله، ولم يكره المنكر ولا أهله فسد، وربما آل به الأمر إلى حب المنكر وكره المعروف والخير. وهذا عنوان الكفر والعياذ بالله.

مراتب الناس حسب جهادهم:

ولما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام، وفيه الحجة والبرهان على صدق الايمان؛ لذا كانت منازل الناس عند الله في الدنيا والآخرة، حسب ما يقومون به من جهاد، وما يقدمونه من تضحيات. فمن حاز قصب السبق فيه، وجب على المجتمع المسلم أن يرفعه وأن يكرمه، ومن فترت همته عنه لم يجز تسويته

---

(١٣٧) رواه مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه وأحمد ـــ انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ج ٢ ص ٢٢ وما بعدها، وصحيح الترمذي بشرح ابن العربي المالكي ج ٩ ص ١٨، ودليل الفالحين ج ١ ص ٤٦٦ طبعة الحلبي ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م.

بالمجاهدين. فالجهاد قيمة عليا من القيم التي يتعامل بها المجتمع المسلم، وإنما كان العلم والتقوى من تلك القيم أيضا؛ لأنها أنواع من الجهاد؛ لما في العلم من دوافع الجهاد، ومعرفة طريقه، والتثبيت عليه، ولما في التقوى من جهاد النفس وإلزامها على طاعة الله، وترك نواهيه، وكذلك فإن العلم والتقوى ثمرة من ثمار الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: « **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** »(١٣٨).

ولهذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام أكرم الخلق وأكملهم عند الله عز وجل؛ لأنه كمَّل مراتب الجهاد كلها، وجاهد في الله حق جهاده، من حين بعث حتى توفاه الله عز وجل، وجاهد بقلبه وجنانه ودعوته وبيانه، وسيفه وسنانه، وكانت ساعاته وأيامه وعمره موقوفة جميعها على الجهاد.

وإذا كان المسلم لا يمكنه أن يصل إلى تلك الرتبة العليا، فينبغي أن يسير نحوها، وأن يحاول أن يقترب منها، وأن يأخذ من تلك المراتب الجهادية قسطا وافرا؛ حتى يكون متمثلا بقوله تعالى: « **وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ** »(١٣٩)، وإن حق الجهاد في الله أن يستعمل العبد جميع ما أوتي من طاقة في جهاد

---

(١٣٨) العنكبوت ــ الآية ٦٩.

(١٣٩) الحج ــ الآية ٧٨.

نفسه وشيطانه وأهل الكفر والنفاق والمنكر في الأرض.

الهجرة مقدمة الجهاد:

وإذا كان الجهاد هو مدافعة الأعداء لإزالتهم من طريق الدعوة، وإحباط وسائلهم والمعوقات التي يستعملونها في مواجهة الدعاة، فإن هذا لا يتم إلا بالانحياز إلى حزب الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، والتخلص من سلطان أعداء الله، وهذا هو معنى الهجرة، وهي هجرتان: هجرة لله بالاخلاص له والانابة إليه والتوكل عليه، وخوفه ورجائه ومحبته والتوبة إليه، وهجرة إلى الرسول عليه السلام باتخاذه قائدا في كل أمر، وتقديم أمره على أمر غيره والتأسي به دون أي إنسان سواه.

فمن أراد أن يكون جهاده تاما ومجديا فلا بد أن ينتزع نفسه من مؤثرات أعدائه وضغوطهم، وأساليبهم في التضليل. وقد يكون ذلك بالهجرة المادية إذا كان للمسلمين دار خاصة بهم، ودولة تدير شؤونهم، وهي الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام[١٤٠]، بل تكون الهجرة عندئذ فرضا عليه[١٤١]، ولا يجوز له أن يظل في بيئة ملوثة عند أعداء دينه؛ لأنه يخشى عليه

---

(١٤٠) ابن قدامة ـــ المغني ج ٩ ص ٢٩٣ ـــ الطبعة الأولى المحققة ـــ ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م.

(١٤١) أبو إسحاق الشيرازي ـــ المهذب ج ٢ ص ٢٢٦ ـــ مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.

وعلى إيمانه أن ينقص في ظلال توجيهاتهم[١٤٢]. وهكذا كانت الهجرة فرضا على المسلمين الذين بقوا في مكة بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، ولم يرخص بالبقاء إلا لمن منعه الأعداء من الخروج بالقوة القاهرة، ومما يدل على وجوب مفارقة دار الكفر إلى دار الإسلام قوله تعالى: « **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِم، قالوا: فِيمَ كُنتُم؟ قالوا: كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ، قالوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فيها** »[١٤٣]، كذلك ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: « أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين »[١٤٤]، وهو ظاهر في تحريم مساكنة الكفار ووجوب مفارقتهم.

وكذلك ينبغي للمسلم أن يهاجر من الأرض التي يشيع فيها

---

(١٤٢) أبو إسحاق الشيرازي ـ المهذب ج ٢ ص ٢٢٧، الشيخ عليش ـ فتح العلي المالك ج ١ ص ٣٧٥ ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م، الشوكاني ـ نيل الأوطار ج ٨ص ٢٩،ابن تيمية ـ مجموع الفتاوي ـ المجلد ٢٨ ص ٢٠٤.

(١٤٣) النساء ـ الآية ٩٧.

(١٤٤) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، ورجال إسناده ثقات، ولكن صحح البخاري وأبو حاتم وأبو داود والترمذي والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم ـ انظر الشوكاني ـ نيل الأوطار ج ٨ ص ٢٨.

الحرام والظلم والباطل والفتنة[145]، إلى بلد يأمن فيه على دينه؛ فقد قال رسول الله ﷺ: « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعب الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن »[146]، فإن لم يجد المسلم بلدا تخلو من الحرام والظلم والفتنة، كان عليه أن يختار أقل البلاد إثما وظلما[147]. لكن اختلف الفقهاء في وجوب الهجرة من دار الفسق إلى دار العدل، فقال به بعضهم، وقال آخرون باستحبابه[148].

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية »[149]، فقد قاله الرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن فتحت مكة، وأراد بعض المؤمنين أن يهاجروا إلى المدينة بعد ذلك، فبين لهم الرسول عليه الصلاة والسلام أن الهجرة لا تكون من دار الإسلام إلى دار الإسلام، وإنما من دار الكفر إلى دار

---

(١٤٥) وهو ما أسماه بعض العلماء بدار الفسق ــ انظر الشوكاني ــ نيل الأوطار ج ٨ ص ٢٩.

(١٤٦) أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي ومالك في الموطأ ــ انظر رياض الصالحين ص ٢٥٠، وفتح العلي ج ١ ص ٣٧٥.

(١٤٧) الشيخ عليش ــ فتح العلي المالك ج ١ ص ٣٧٥.

(١٤٨) انظر: الشوكاني ــ نيل الأوطار ج ٨ ص ٢٩، والشيخ عليش ــ فتح العلي المالك ج ١ ص ٣٧٥.

(١٤٩) رواه البخاري ومسلم ــ انظر: اللؤلؤ والمرجان ــ الحديث رقم ٨٥٩ والحديث رقم ١٢١٩ واللفظ لمسلم.

الإسلام: فعن مجاشع بن مسعود أنه جاء بأخيه مجالد بن مسعود (أبي معبد) إلى النبي ﷺ فقال: هذا مجالد جاء يبايعك على الهجرة، فقال: « مضت الهجرة لأهلها، أبايعه على الإسلام والجهاد »[١٥٠].

وهذا التفسير متعين للجمع بين ما تقدم من الآيات وما تقدم من الأحاديث الصحيحة[١٥١]، ويدل عليه ما قاله ابن عمر رضي الله عنهما: (انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار)[١٥٢]. فما دام في الدنيا دار كفر فالهجرة منها واجبة على من أسلم، وقدر عليها. ويدل على ذلك أيضا ما رواه معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها »[١٥٣]. وما رواه عبد الله بن السعدي أن رسول الله ﷺ قال: « لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو »[١٥٤].

---

(١٥٠) رواه البخاري ومسلم ــ اللؤلؤ والمرجان ــ حديث رقم ١٢١٨، ومختصر صحيح مسلم ــ حديث رقم ١١٨٥.

(١٥١) النووي ــ رياض الصالحين ص ٦.

(١٥٢) الشوكاني ــ نيل الأوطار ج ٨ ص ٢٩.

(١٥٣) رواه أحمد وأبو داود ــ انظر: الشوكاني ــ نيل الأوطار ج ٨ ص ٢٧.

(١٥٤) رواه أحمد والنسائي ــ انظر: الشوكاني ــ نيل الأوطار ج ٨ ص ٢٧.

ولا يستثنى من هذا الحكم إلا الضعفاء الذين يمنعهم الكفار من الهجرة ولا يقدرون على التخلص منهم لقوله تعالى: « **إلا المُستَضعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والوِلْدَانِ لا يستَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهتَدُونَ سَبِيلا، فأولئك عَسَى الله أنْ يعْفُوَ عَنْهُم وَكَانَ الله عَفُوّاً غَفُوراً** »(١٥٥). ولا يصح الاعتذار عن الهجرة بطلب المال أو غيره من زينة الحياة الدنيا؛ لأن هذا كله ملغى في نظر الشارع؛ فقد وصف سبحانه المعذورين في ذلك بقوله تعالى: « **لا يَستَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهتَدُون سَبِيلا** »، أي لا يعذر في عدم الهجرة من دار الكفر إل دار الإسلام إلا من عجز عنها عجزا كليا، وأما من كان له حيلة أو مخرج، فلا يسقط عنه هذا الواجب(١٥٦).

هذا إذا كان للإسلام دار تظهر فيها شعائره، وتحكم فيها شرائعه، وأما إذا لم يكن للإسلام دار، ولم يكن للمسلمين دولة تسيِّر أمور الدنيا بأوامر الله وأحكام الشرع. وكان المسلم يعيش في بيئة جاهلية فيجب عليه أن يهجر جميع مواقع التأثير التي يعتمد عليها المتسلطون والطغاة، وأن يهجر بعقله وقلبه أفكار ذلك المجتمع الجاهلي، وأن يهجر بسلوكه عاداته وتقاليده، وأن

---

(١٥٥) النساء ــ الآيتان ٩٨، ٩٩.

(١٥٦) الشيخ عليش ــ فتح العلي المالك ج ١ ص ٣٧٥.

يحجز نفسه عن التلوث بمستنقعاته، وأن لا يتلقى شيئا من منهاج حياته مما يضعونه لأنفسهم من المناهج، وأن يقتصر في التلقي على كلام الله وكلام رسوله الكريم.

وهذا التميز في العقيدة والفكر والثقافة والسلوك عن أعداء الله هو مبدأ الجهاد، والخطوة الأولى فيه، ولا يكاد يجدي جهاد لا هجرة في أوله ولا تميز. وإن رسول الله عليه الصلاة والسلام وصحابته، قد هاجروا إلى الله بقلوبهم وسلوكهم من أول الأمر في مكة، استجابة لنداء الله عز وجل في قوله: « **قُلْ يَا أَيُّها الكَافِرُونَ، لا أَعبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلا أَنْتم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُم وَلِيَ دِينِ** »(١٥٧). بل إن الله سبحانه الذي قدر لمحمد ابن عبد الله أن يكون المصطفى لحمل رسالة الإسلام إلى البشرية ربّاه على هذا التميز وهذه الهجرة الروحية والسلوكية قبل أن يوحي إليه، فأبعده عن جميع رذائل المجتمع الجاهلي، وأفكاره وعقائده، وغرس في قلبه كره الأصنام وما كانوا عليه من الوثنية والفساد.

والجدير بالملاحظة في هذا المقام أن الهجرة لا تعني الانعزال عن الناس؛ لأن هذا المعنى يعود على المقصود منها بالابطال؛ لأن المقصود منها هو الاستعداد النفسي والشعوري للجهاد والدعوة إلى

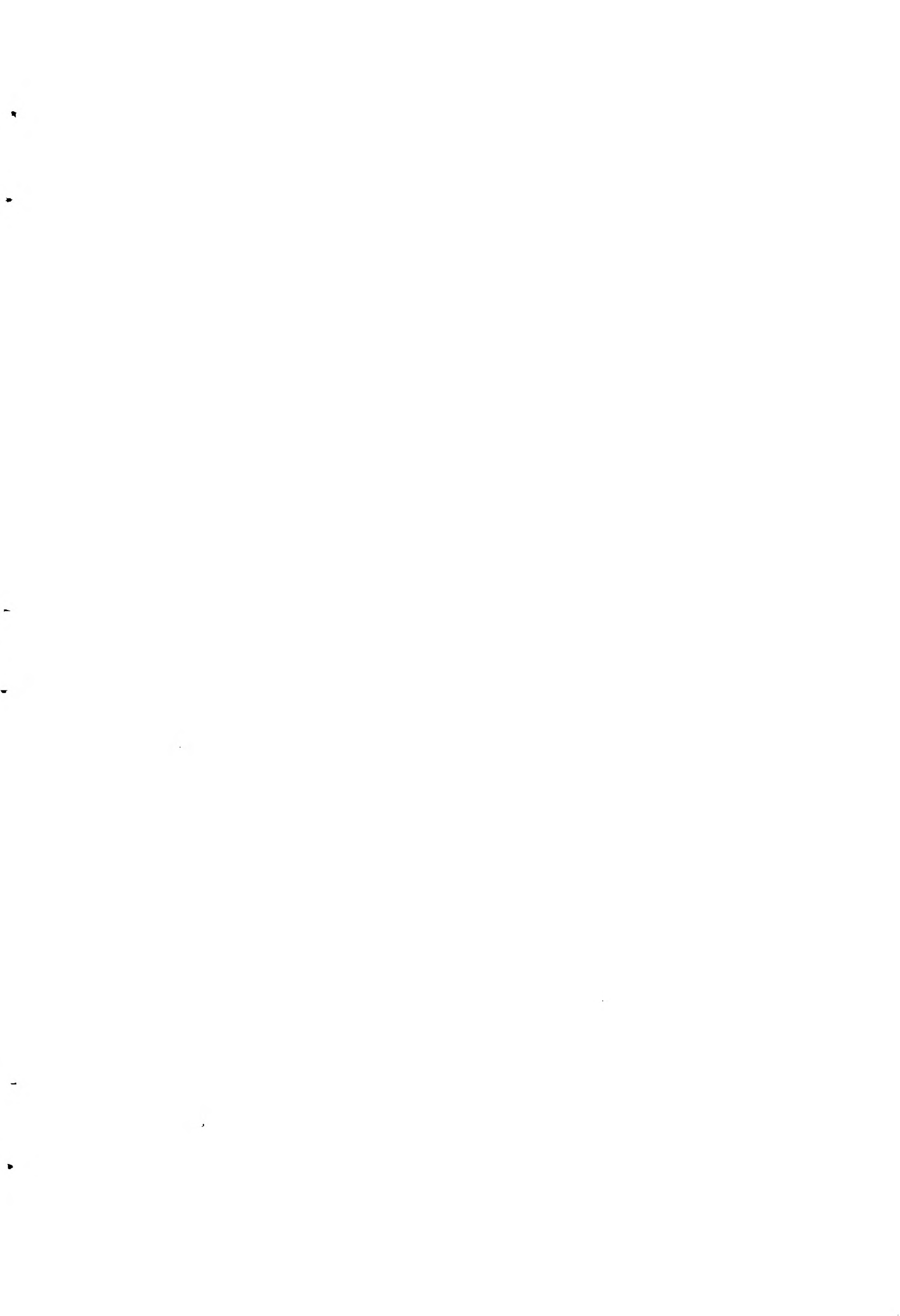
---

(١٥٧) سورة الكافرون.

الله، والانعزال يبطل هذا المقصود. ولكن معناها الحقيقي أن يبتعد المؤمن عن مصائد الجاهلية وشباكها، التي إذا وقع فيها، أصابه منها خسران في إيمانه ودينه، فإذا تحاشى هذه المواقع الخطرة بقي عليه واجب الجهاد، والدعوة، والاتصال بالبشر، ودعوتهم إلى الله؛ ولذلك قال عز وجل لرسوله الكريم: « **فَادْعُ واسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم** »(١٥٨)، فأمره بالدعوة، وهي نوع من الجهاد كما تقدم، ومراعاة الاستقامة، والبعد عن أهواء الكافرين في وقت واحد.

* * *

(١٥٨) الشورى ــ الآية ١٥.



المَطلَبُ الخامس
خصائصُ الجهادِ

ما تقدم ذكره عن حقيقة الجهاد ومبرراته وغايته وأشكاله يوضح كثيرا من خصائصه ومميزاته التي تميزه عن أي كفاح بشري آخر ، ومن ذلك يمكن استنباط ما يلي من الخصائص :

أولا : جهاد مبدأ وعقيدة :

الجهاد في الإسلام **جهاد مبدأ وعقيدة**، وليس جهاد غرض ومنفعة، كما هي الحال في حروب الكفرة، التي لا يقصد بها سوى الشهوات والمطامع والمغانم والمظاهر ، كما قال عنهم الله عز وجل: « **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِم بَطَرَاً وَرِئاءَ النَّاسِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، واللهُ بِما يَعمَلُونَ مُحِيط** »(١٥٩) .

وبهذا فإن المجاهد المسلم يتميز عن أي مقاتل آخر بأنه جندي فكرة وعقيدة، لا جندي غرض ومنفعة. وكل مسلم لا ينطلق في كفاحه من عقيدة الإسلام، فلمْ تكن نيته اعلاء كلمة الله عز وجل، ونشر عدالته بين العباد، لم يكن جهاده مقبولا،

---

(١٥٩) الأنفال ــ الآية ٤٧ .

وإنما يكون رياء ممقوتا عند الله عز وجل[١٦٠].

ولذلك فإننا نجد كتاب ربنا يقسم الكفاح البشري إلى قسمين لا ثالث لهما: الأول هو القتال الذي يصدر عن المؤمنين، وهو الجهاد في سبيل الله تعالى، والثاني هو القتال في سبيل الطاغوت، فقال جل وعلا: « **الَّذينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله والَّذينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوت** »[١٦١].

وعقيدة الإسلام التي يرتكز إليها الجهاد، وينطلق منها، ليست كالمبادئ التي يتستر وراءها الكفار في حروبهم، والتي لا تعدو كونها وسائل وشعارات تستخدم لاستعلاء أقوام على آخرين. وإنما تقوم عقيدة الإسلام على أساس رد العباد كلهم إلى خالقهم، لا فرق في ذلك بين أبيضهم وأسودهم ولا بين أصفرهم وأحمرهم، ولا بين غنيهم وفقيرهم، وتستهدف سعادة البشر كلهم في جميع بقاع الأرض، فينطلق أتباعها ليوصلوا هذه السعادة إلى كل الناس؛لا ليستبدوا بالأمم وثرواتها، أو يسخروها لخدمة أغراضهم الدنيوية. حتى إذا ما انحرفت نية مجاهد نحو هذه

---

(١٦٠) ابن رشد ــ المقدمات الممهدات ج ١ ص ٢٦٨ ــ الطبعة الأولى ــ مطبعة السعادة، الأحكام السلطانية ص ٤٥ ــ الماوردي ــ الطبعة الأولى ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

(١٦١) النساء ــ الآية ٧٦.

الأهداف أو غيرها من مطالب الدنيا وشهواتها، تبرأ الإسلام من عمله وجهاده، واعتبره وزرا عليه وإثما، وهذه قاعدة إسلامية في كل نوع من أنواع الجهاد التي تقدم ذكرها في المطلب السابق.

قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتي به، فعرَّفه نعمه، فعَرَفَها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكن قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرَّفه نعمه، فعرفها، قال: فما فعلت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها، إلا أنفقتَ فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه، ثم ألقي في النار»(١٦٢). وورد في حديث آخر بيان لما يقبل من الجهاد وما يرد؛ فقد جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال:

---

(١٦٢) رواه مسلم ـــ انظر: مختصر صحيح مسلم للمنذري حديث رقم ١٠٨٩.

الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله»(١٦٣).

ويظهر تميز الجهاد الإسلامي بهذه الخصيصة إذا ما نظر إلى حروب الكفرة التي يعلنونها على المؤمنين، وعلى بعضهم بعضا؛ فإنها لا تنطلق من مبدأ، وليس لها من هدف إنساني، ولا يراد بها سوى إرضاء الشهوات الدنيئة، وإطفاء أوار المطامع الجشعة. وفي هذه الأيام أثاروا حروبا على الأمم المستضعفة، وليس لها من غاية سوى البحث عن أسواق لبضائعهم، والاستبداد بمنابع الثروات الانسانية، والاستيلاء على الأراضي والمواقع التي تلائمهم في الانقضاض على الشعوب؛ لاستعبادها وتسخيرها لتدعيم سلطانهم وطغيانهم.

وعقيدة الإسلام التي يصدر عنها المسلمون في جهادهم عقيدة عامة شاملة، لا تنظر إلى مصلحة أمة دون أخرى، ولا استعلاء شعب على شعب، والإسلام لا يهمه أن تكون الأرض ملكا لهذه الأمة أو تلك، وإنما يهمه صلاح الناس الذين يعيشون فوق الأرض، وانقطاع الظلم والفساد بين العباد، بأن يلتزم البشر منهاج الله في تسيير شئون الحياة(١٦٤). وليس في هذا المنهاج تحيز

---

(١٦٣) رواه مسلم ــ انظر: مختصر صحيح مسلم حديث رقم ١٠٨٨.

(١٦٤) المودودي ــ الجهاد في سبيل الله ص ١٤ ــ الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م.

لقوم دون قوم، ولا طبقة دون أخرى؛ لأن مصدره الله الذي خلق الناس جميعا، ولم تضعه فئة معينة، ولا وضعه المسلمون من عند أنفسهم، والله سبحانه منزه عن التحيز والمحاباة، ويريد الخير والسعادة لكل العباد، وهو ليس بحاجة إلى أحد حتى يحابيه، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون؛ ولهذا كان المجاهدون مأمورين بوقف القتال عندما يقبل العدو الالتزام بمنهج الإسلام، وطريقته في تسيير شئون الحياة، وعندئذ ينعم الذين يلتزمون بمنهج الله بجميع حقوقهم، فلا يخرجون من أرضهم ولا تستلب منهم ثرواتهم، ولا يسخرون لخدمة شعب معين أو طبقة معينة.

ومن أجل أن تبقى هذه الخصيصة للكفاح الإسلامي واضحة في أذهان المسلمين، وحتى لا تختلط بمفاهيم غيرهم ومنطلقاتهم في حروبهم آثر الإسلام أن يتجنب الكلمات الشائعة التي يستعملها الكفار في هذا المجال، فجعل للدلالة على هذا الكفاح لفظ «الجهاد»، ولم يستعمل الألفاظ الرائجة، كلفظة الحرب[١٦٥]، وغيرها، وذلك لأن المصطلحات أوعية للمعاني،

(١٦٥) وردت هذه الكلمة في القرآن في أربعة مواضع، بينما وردت كلمة الجهاد في القرآن اثنتين وثلاثين مرة ــ كامل الدقس ــ آيات الجهاد في القرآن الكريم ص ١١، وعلى أية حال فإن كلمة الحرب لم تستعمل في هذه المواضع الأربعة بمعنى الجهاد، انظر البقرة ــ الآية ٧٩، والمائدة ــ الآية ٦٤، والأنفال ــ الآية ٥٧، ومحمد ــ الآية ٤.

ومصطلحات الجاهليين تحمل بين طياتها وفي مضامينها أفكارهم ومنطلقاتهم وعقائدهم، فينبغي تجنبها وعدم استعارتها، حتى لا تختلط في الأذهان مفاهيم الجاهلية بمبادئ الإسلام، ولفظة « الحرب » مثلا كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يشب لهيبه وتسعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية أو قومية أو اقليمية أو طائفية، وليس فيه رائحة لمبدأ أو انتصار لعقيدة تستهدف سعادة الناس بدون تمييز، فكان لا بد من تجنب هذه الكلمة، حتى لا تجر بأذيالها شيئا من تلك الغايات والمفاهيم إلى التصورات والمبادئ الإسلامية[١٦٦].

---

(١٦٦) المودودي ــ الجهاد في سبيل الله ص ١٤، كامل الدقس ــ آيات الجهاد في القرآن الكريم ص ١١، وقارن هذا مع وهبة الزحيلي ــ آثار الحرب في الفقه الإسلامي ص ٣١ ــ المطبعة العلمية بدمشق ــ الطبعة الثانية، ومجيد خدوري ــ الحرب والسلم في الشريعة الإسلامية ص ٩٠ طبع بيروت ١٩٧٣ م. هذا ويحرص كثير من المبشرين والمستشرقين على إعطاء كلمة الجهاد في الإسلام معنى كلمة الحرب، إمعانا منهم في إخفاء خصائص الجهاد الإسلامي وغاياته مما يميزه عن حروب الكفرة وغاياتها وخصائصها، بل يزيدون على ذلك بأن يصوروه نوعا من الحرب الظالمة التي تتصف بالهمجية والشراسة ــ انظر: كامل الدقس ــ آيات الجهاد ص ٩٩ــ١٠٠، وهبة الزحيلي ــ آثار الحرب ص ٣٤، المودودي ــ الجهاد في سبيل الله ص ٥،٦، محمد الصواف ــ المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ص ١١٥ ــ طبع سنة ١٩٦٥ م دار الثقافة بمكة، عباس العقاد ــ ما يقال عن الإسلام ص ١٣٥،١٣٦ ــ الطبعة الثانية =

ثانيا : الشمول :

يتضح مما تقدم في مفهوم الجهاد أنه بمفهومه العام يتميز بالشمول والعموم، ومن مظاهر ذلك أنه يتناول جميع أنشطة المؤمن وأحواله، ويجعل منه إنسانا دائم الحركة نحو هدف معين، هو هدف الدعوة التي حملها، بحيث يلاحق أعداء ذلك الهدف ومعوقاته ويطاردهم ويتصدى لهم في كل اتجاه وعلى جميع المستويات، ويصارع الشر ودوافعه في نفسه وفي الناس، ويستخدم في هذا الجهاد كل وسيلة أنعم بها عليه خالقه سبحانه وتعالى، من عقل وسمع وبصر ولسان ومال وغير ذلك.

كذلك تظهر هذه الميزة في جهة أخرى، وهي أن الجهاد في الإسلام يشمل كل مؤمن، بحيث يجب على كل فرد مستطيع في الجماعة المسلمة أن يتحرك ويجاهد في تحقيق أهداف الدعوة في حدود طاقاته وقدراته. كذلك يجب على هذه الجماعة أن تجاهد مجتمعة، وبخاصة عندما يمكن الله لها في الأرض، ويكون لها دولة وحكومة.

وهذه الميزة في الجهاد الإسلام تجعل من المجتمع المؤمن مجتمعا مجاهدا في جميع أحواله، وفي حركة دائبة لتحقيق أهدافه التي ندبه الله لتحقيقها، وبذا تصنع عقيدة الجهاد أمة محصنة ضد أي

= جولد تسيهر ـــ العقيدة والشريعة ص ٣٩، ١٣٧ ـــ الطبعة الثانية.

عدوان أو أسلوب عدواني يوجهه إليها أعداؤها. وهي كذلك في جبهتها الداخلية، كما هي في مرابطيها ومجاهديها: معبئة على الدوام، مستعدة لنزال أهل الباطل، والدفاع عن الإسلام وأهله وأرضه، أسلحتها المادية والمعنوية جاهزة على الدوام، وفي الوقت الذي يمسك فيه القادرون منها على السلاح بأيديهم، تمتلئ قلوب الجميع بكره الكفر والباطل والظلم والشر، والتشوق للجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى، مسترشدين بقول الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: « من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق »[١٦٧]، وبقوله أيضا: « من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه »[١٦٨]، وذلك في الوقت الذي يأخذون فيه بجميع أسباب الاستعداد المادي، استجابة لقول ربهم عز من قائل: **« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ، وآخرينَ مِنْ دونِهِم لا تَعْلَمُونَهُم اللهُ يَعْلَمُهُم »**[١٦٩].

وبهذا يتبين أن المسلمين لا يخوضون معركة ضد أعدائهم إلا ويكون لكل واحد منهم سهم فيها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

---

(١٦٧) رواه مسلم ــ مختصر صحيح مسلم ــ حديث رقم ١٠٧٣.

(١٦٨) نفسه حديث رقم ١٠٧٨.

(١٦٩) الأنفال ــ الآية ٦٠.

ومن المضحك أن يدّعي قائد كبير مثل الجنرال الألماني « لودندورف » في كتاب أصدره بعد الحرب العالمية الأولى بأن الألمان هم أصحاب خطة الحرب الجماعية، وهي تعني حرب أمة ضد أمة أخرى في جميع النواحي المادية والفكرية، وهو لا شك يجهل أن المسلمين قبل أربعة عشر قرنا قد خاضوا معاركهم المقدسة بالشكل الإجماعي الذي كان يُحشد فيه جميع قوى المسلمين المادية والمعنوية؛ من أجل ظهور كلمة الله وإعلائها(١٧٠).

ثالثا: الواقعية:

وتظهر هذه الميزة في الجهاد الإسلامي من جهتين:

الأولى: أنه يتبين مما تقدم بيانه في المطلبين السابقين أن الجهاد في الإسلام حركة تواجه الواقع البشري، بكل ما فيه من المعوقات، بوسائل مكافئة لها(١٧١): ففي الوقت الذي يقف فيه في وجه الانحرافات الفكرية والعقائدية ببيان العقائد السليمة عن أصل الوجود والحياة، ووظيفة الانسان ومركزه في الكون، ومصيره، نجدها تتصدى للقوى المادية التي يسخرها الأعداء

---

(١٧٠) عبد الله التل ــ جذور البلاء ــ القسم الأول ص ٢٥٣ ــ الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١ م.

(١٧١) سيد قطب ــ معالم في الطريق ص ٥٧ طبع ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م

للصد عن سبيل الله بأسلحة مادية مشابهة، فتستعمل لكل عدو ما يناسبه من سلاح وما يؤثر فيه، فلا تقهر ضمائر الناس بالسيف، وإنما تخاطبها بالحجة والبيان، ولكنها لا تكتفي بالجدل والبيان في مواجهة الأساليب المادية التي يستعملها الطغاة، وإنما تقهرها بالسلاح المادي.

الثانية: أن هذه الحركة تراعي واقع الدعوة الإسلامية، وظروف المسلمين، من حيث القوة والضعف، وتتخذ لكل ظرف ما يناسبه من أنواع الجهاد، وتنتقل من مرحلة إلى أخرى، لتصل في النهاية إلى أهدافها، فهي تتدرج بأتباعها من مرحلة التربية والاعداد إلى مرحلة الدفاع عن منجزات الدعوة، إلى مرحلة الهجوم على الأعداء، مبتدئة بالأخطر منهم من المجاورين ورؤوس الكفر.

ويظهر ذلك جليا في الخطة الجهادية التي أوحى بها الله إلى رسوله، فالتزمها الرسول عليه الصلاة والسلام بدقة، حتى بلغ بمشيئة الله إلى أهداف الدعوة النهائية، وكانت تلك الخطة تتدرج بالمؤمنين حسب المراحل التالية(١٧٢):

---

(١٧٢) ذكر هذه المراحل ابن قيم الجوزية في زاد المعاد ج ٢ ص ١٥١ مطبعة السنة المحمدية، والسرخسي في المبسوط ج ١٠ ص ٢،٣، والخطيب الشربيني في مغنى المحتاج ج ٤ ص ٢٠٨،٢٠٩ وابن تيمية في السياسة الشرعية ص ١١٤ — مؤسسة مكة للطباعة والأعلام =

١ ـــ مرحلة التربية والاعداد العقائدي والفكري والأخلاقي، والجهاد بالدعوة والبيان. وقد استغرقت هذه المرحلة جميع الفترة التي قضاها الرسول في مكة بعد بعثته عليه الصلاة والسلام. وقد أمِرَ المسلمون فيها بالكف عن القتال وبعدم استعمال السيف(١٧٣)، كما أشار إليه الباري عز وجل في سورة النساء، حيث قال: « **أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ قِيلَ لَهُمْ: كُفُّوا أيْدِيَكُم وَأقِيمُوا الصَّلاةَ** »(١٧٤). ولكنهم كانوا في هذه المرحلة مأمورين بالتميز الفكري والعقائدي والسلوكي عن الكفار؛ حيث أمروا بعبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان، والأخلاق المتفرعة عنها؛ يوضح ذلك نداء الله تعالى لقائد الدعوة رسول الله ﷺ: « **قُلْ يَا أيُّهَا الكَافِرُون، لا أعْبُدُ مَا تَعْبُدُون** »(١٧٥)، وكذلك مواقف الرسول عليه الصلاة والسلام من مساومات المشركين ومطالبهم.

ومع هذا التميز في العقيدة والأخلاق كان الرسول ومن معه من المؤمنين مأمورين بالجهاد بالعلم والحجة والبيان دون اليد

= ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م، وابن عابدين في الحاشية ج ٣ ص ٣٠٢ ـــ المطبعة العثمانية، ومحمد البابرتي في شرح العناية على الهداية ج ٤ ص ٢٨٢ ـــ مطبعة مصطفى محمد، والصاوي في حاشيته على الشرح الصغير ج ٢ ص ٢٦٧ ـــ طبعة دار المعارف بمصر.

(١٧٣) الصاوي ـــ الحاشية على الشرح الصغير ج ٢ ص ٢٦٧.

(١٧٤) النساء ـــ الآية ٧٧.

(١٧٥) الكافرون ـــ الآيتان ١، ٢.

والسلاح[١٧٦]، يدل على ذلك قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: « **فَلا تُطِعِ الكَافِرِين وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً** »[١٧٧]، وهذه آية من سورة الفرقان، وهي مكية، والمقصود: جاهدهم بما في القرآن من الحق والفرقان، وبما فيه من تفنيد لما هم عليه من العقائد الباطلة والقيم الهابطة[١٧٨].

٢ ــ مرحلة التميز المادي واتخاذ الموقع بالهجرة إلى المدينة، وكانت هذه مقدمة لمرحلة أخرى يباح فيها استعمال القوة المادية والعنف مع أعداء الدعوة، وكان لا بد منها ليتخذ المؤمنون الوضع المناسب للذود عن أنفسهم ودعوتهم. وقد كانت الظروف المادية والمعنوية في المدينة المنورة أكثر تحقيقا لمثل هذا الوضع. وإلا فإن هجرة الرسول والصحابة لم تكن فرارا من واقع مكة السيء، وإنما تنفيذا لخطة ربانية موحى بها من عند الله عز وجل، هدفها كسر شوكة الكفار وإزالة العقبات من وجه الدعوة[١٧٩].

---

(١٧٦) ابن تيمية ــ مجموع الفتاوي ــ المجلد ٢٨ ص ٣٨.

(١٧٧) الفرقان ــ الآية ٥٢.

(١٧٨) انظر: محمد شديد ــ الجهاد في الإسلام ص ٣ــ٦ ــ مؤسسة الرسالة بيروت ــ والفصل الأول من هذا الكتاب بيان واف لما كان في هذه المرحلة من جهاد بالدعوة والبيان، وبالتربية للخلق والوجدان، وإقامة الأسس الأخلاقية في نفوس المؤمنين.

(١٧٩) محمد شديد ــ الجهاد في الإسلام ص ٤٧، ٤٨، محمد نعيم ياسين ــ الجهاد (ميادينه وأساليبه) ص ٦٨ ــ الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

٣ ـــ مرحلة الدفاع المباح بالقوة المادية: وفي هذه المرحلة أباح الله عز وجل للدعاة أن يستعملوا السلاح والقوة المادية في دفع أذى المشركين، ولم يوجبه عليهم إيجابا، وإنما تركه لظروفهم وإمكاناتهم، فإن قدَّروا بإنهم يستطيعون مقابلة القوة بالقوة فعلوا، والله معهم، وإلا فلهم أن يصبروا حتى يغدو ذلك ممكنا، ويعبِّر عن هذه المرحلة قول الله تعالى: « **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: رَبُّنَا اللهُ. وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** »(١٨٠).

٤ ـــ مرحلة الدفاع الواجب بالقوة المادية: وكانت بعد أن اشتد ساعد الدعوة الإسلامية، فأمر الله تعالى الدعاة أمرا أن يقاتلوا من يقاتلهم دون من يسالمهم، ولم يكن لهم في هذه المرحلة الخيار في أن يقاتلوا أو يصبروا، وإنما فُرضت عليهم المجابهة، ولكن للمعتدي دون المسالم. والذي يظهر أن جميع الآيات التي تأمر بقتال من قاتل ومسالمة من سالم، وتنهى عن الزيادة على ذلك نزلت في هذه المرحلة، ومن هذه الآيات قوله تعالى:

---

(١٨٠) الحج ـــ الآيتان ٣٩، ٤٠

« **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا** »(١٨١)، وقوله تعالى: « **فَإِن قَاتَلُوكُم فَاقْتُلُوهُم، كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ** »(١٨٢)، وقوله تعالى: « **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ** »(١٨٣).

٥ ـــ مرحلة وجوب قتال الكفار جميعا، سواء اعتدوا بالفعل أو لم يعتدوا، ولا يستثنى في هذه المرحلة من القتال إلا المعاهدون، وإلى فترة مؤقتة، لا إلى الأبد، ولم تدخل الدعوة في هذه المرحلة حتى مكّن الله للدعاة في الأرض، وأصبح لديهم القدرة على مواجهة الباطل وأهله في كل مكان، وكان ذلك بعد فتح مكة، حيث خضع العرب جميعهم أو معظمهم لحكم الله تعالى، فنزلت بعد ذلك سورة براءة تضع الأحكام النهائية للعلاقات بين الدولة الإسلامية والدول الكافرة(١٨٤).

ومن آيات سورة براءة التي تضع الخطوط الرئيسية لهذه المرحلة النهائية قوله تعالى: « **فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُم لَا أَيْمَانَ**

---

(١٨١) البقرة ـــ الآية ١٩٠.

(١٨٢) البقرة ـــ الآية ١٩١.

(١٨٣) الأنفال ـــ الآية ٦١.

(١٨٤) انظر تلخيص ما جاءت به سورة براءة من أحكام العلاقات بين المسلمين والكفار عند ابن قيم الجوزية ج ٢ ص ٢٠٧، ٢٠٨ طبع مطبعة السنة المحمدية، وفي تفصيل ذلك انظر: العلاقات الدولية في الإسلام على ضوء الاعجاز البياني في سورة التوبة لكامل الدقس.

لَهُمْ لَعَلَّهُم يَنْتَهُون »(١٨٥)، وقوله تعالى : « وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكم كَافَّةً »(١٨٦)، وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمنُوا قَاتِلُوا الَّذينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّار »(١٨٧)، وبخصوص أهل الكتاب قال تعالى : « قَاتِلُوا الَّذينَ لا يُؤمِنُونَ باللهِ وَلا باليَوْمِ الآخر، وَلا يُحَرِّمُون مَا حَرَّمَ اللهُ ورَسولُهُ، وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذينَ أوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَة عَنْ يَدٍ وَهُم صَاغِرُون »(١٨٨).

ومن الجدير بالذكر أن ما نزل من الآيات حول الجهاد قبل سورة براءة لا يعتبر منسوخا بآيات براءة حسب الراجح، وإنما يعمل بها في كل مرحلة يمر بها الدعاة المسلمون تشبه تلك المراحل التي نزلت فيها تلك الآيات.

رابعا : وضوح الهدف :

ومن مميزات الجهاد الإسلامي أنه حركة لها هدف واحد، في جميع أوضاع الدعوة ومراحلها، وهذا الهدف هو تعبيد الناس لرب الناس، وتخليصهم من العبودية لغير الله عز وجل، وهو هدف ملازم لكل شكل من أشكال الجهاد التي سبقت الاشارة

---

(١٨٥) التوبة ــ الآية ١٢.

(١٨٦) التوبة ــ الآية ٣٦.

(١٨٧) التوبة ــ الآية ١٢٣.

(١٨٨) التوبة ــ الآية ٢٩.

إليها، ولكل مرحلة من مراحله: فجهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الكفار والمنافقين وأهل النار، هدفه واحد لا يتغير ولا يتحول، وإن اختلفت الوسائل والمراحل[١٨٩].

ولقد أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك الهدف من أول يوم بلّغ فيه رسالة ربه، وصرح بأنه مبعوث لتحقيقه، وأنه سوف يستعمل مختلف الوسائل من أجله، وأنه سوف يبقى على العمل والجهاد حتى تدين له العرب، وتخضع العجم لحكم المسلمين، ويعم العدل الالهي أنحاء المعمورة، ولم يكتم ذلك عن الناس في أية مرحلة من المراحل الجهادية السابقة، وإنما أعلنه في مكة حيث لم يكن معه عدد ولا عدة عندما جمع كفار قريش وزعماءهم، وطلب منهم أن يقولوا كلمة التوحيد لتدين لهم العرب وتخضع لهم العجم، وتؤدي الجزية، ولكنهم أبوا وسخروا منه[١٩٠]. وأعلنه وهو مهاجر إلى المدينة، ثاني اثنين، في صورة وعد لسراقة بن مالك بأن يجعل الله سِواري كسرى من نصيبه[١٩١]، مشيرا بذلك إلى أن عدل الإسلام سيشمل، بإذن الله تعالى، البلاد

---

(١٨٩) سيد قطب ــ معالم في الطريق ص ٥٨.

(١٩٠) الكاند هلوي ــ حياة الصحابة ــ المجلد الأول ص ٦٣ طبع دار المعرفة ــ بيروت.

(١٩١) الزرقاني ــ الشرح على المواهب اللدنية ــ المجلد الأول ص ٣٤٨ ــ دار المعرفة ــ بيروت.

التي كانت تخضع لحكم عبّاد النار . وأعلنه عليه الصلاة والسلام في وقت بلغت فيه قلوب فريق من الصحابة حناجرهم أثناء حصار الأحزاب الكافرة للمدينة الصابرة ، وغدر يهود ، ونقضهم العهود ، فبشر أصحابه في هذه الظروف بما سيؤول إليه أمر الإسلام ، وخضوع أكبر دولتين في ذلك الزمان لحكم القرآن[١٩٢] ، وهو الهدف نفسه الذي كان يطلبه جند الإسلام بعد عهد الرسالة ، وفي عهود الخلفاء المهديين ، وكانوا يعلنونه على أعدائهم ، ولا يجاوزونه إلى غيره ، من ذلك ما ورد في كتب السيرة والتاريخ أن باهان قائد الروم أرسل إلى خالد بن الوليد أن أخرج إليّ حتى أكلمك ، فبرز خالد وبينهما ترجمان ، فقال باهان لخالد ، هلم إلى أمر نعرضه عليكم : تنصرفون ونحمل من كان منكم راجلا ونوقر لكم ظهوركم ؛ فإنا نعلم أنكم في أرض قليلة الخير ، وإنما حملكم إلى المسير ذلك ، فقال له خالد : ما حَمَلَنا على المسير ما ذكرت من شدة العيش في بلادنا ، ولكنا بعثنا لنُخْرِجَ الناس من عبادة الانسان إلى عبادة الرحمن[١٩٣] .

---

(١٩٢) ابن هشام ــ السيرة النبوية ــ ج ٣ ص ٢٣٠ مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م.

(١٩٣) السرخسي ــ شرح السير الكبير ــ المجلد الأول ص ٥١،٥٢ ــ تحقيق صلاح الدين المنجد ، طبعة مصر ١٩٥٧ .

وهذا عقبة بن نافع يقف على ساحل البحر المحيط، يدخل قوائم فرسه في البحر، ثم يقول لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، وقال: اللهم إني لم أخرج بطرا ولا أشرا، وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين، وهو أن تُعبَد ولا يشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والاكرام[١٩٤].

وهذا ربعي بن عامر يقول لرستم قائد الفرس، عندما سأله عن سبب مجيئهم: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[١٩٥].

خامسا: التنظيم والضبط:

ومن خصائص الجهاد في الإسلام أنه جهاد منظم ومنضبط بأحكام وضوابط ربانية: فجهاد النفس له حدود وأحكام، وفي كتاب الله عز وجل وفي سنة رسوله ﷺ منهج كامل لتربية النفس الانسانية وتزكيتها، وتحصينها من أساليب الشيطان

---

(١٩٤) محسن الشيشكلي ــ مذكرات في الثقافة الإسلامية ص ٤٧٤ ــ نقلا عن «الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى» لأبي العباس الناصري.

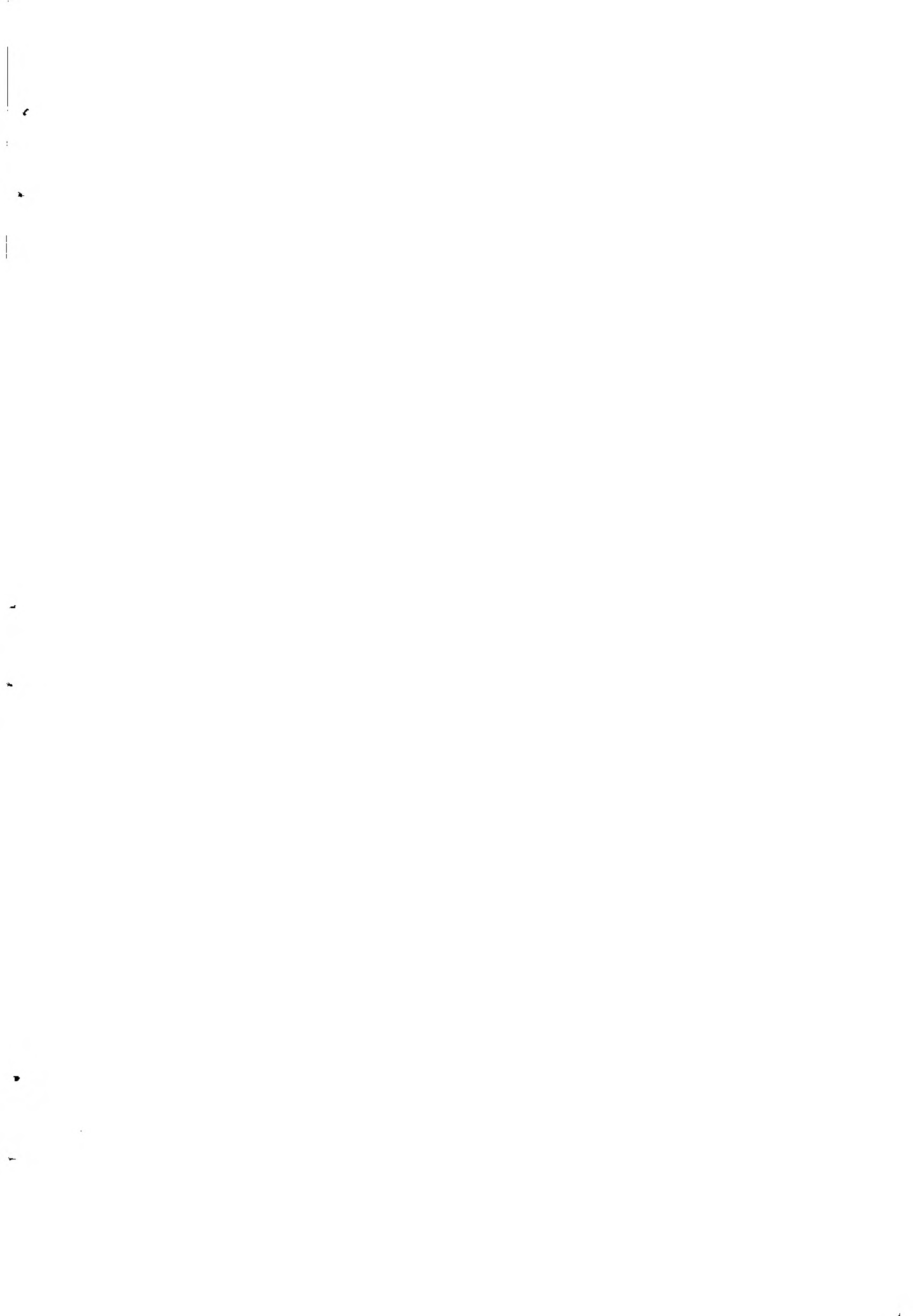
(١٩٥) أبو جعفر الطبري ــ التاريخ ج ٣ ص ٣٤ ــ مطبعة الاستقامة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٩ م.

ومكائده، وهو منهج شامل متكامل متوازن، تؤخذ به الفطرة الانسانية بجميع عناصرها وخصائصها، ولا يُهمَل أي من جوانبها، ولا أية خصيصة من خصائصها.

وجهاد أعداء الله في الخارج له أحكام تنظمه في كل جزئية من جزئياته، وقد صنف في ذلك مصنفات واسعة وافية يمكن الرجوع إليها[١٩٦].

* * *

(١٩٦) وذلك مثل كتاب «السير الكبير» لمحمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، وكتاب الجهاد لأبي جعفر الطبري.



الفهرس

الموضوع | الصفحة

المطلب الثالث :

المطلب الرابع :

المطلب الخامس :